التفسير الميسر
لسورة البقرة

مقتطف من محاضرات جامعة المدينة العالمية

د. محمد بن رزق بن طرهوني

١٤٢٦هـ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد

فنظرا لضخامة كتاب إتحاف البررة بتفسير سورة البقرة حيث وصل إلى ستة أجزاء واحتوائه على مباحث لايحتاج إليها إلا أهل الاختصاص شرح الله الصدر لاقتطاع بعض ما يستفيد منه طلبة العلم دون الحاجة للرجوع للكتاب المطول فوقع الاختيار على موضوعات هذا ثانيها وهو مختص بالتفسير الإجمالي لآيات سورة البقرة نسأل الله القبول والإخلاص .

﴿ الم ﴾

(حروف مقطعة فيها أقوال عدة)

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾

المراد بالآية التنويه بعظم القرآن وتنزيهه عن أن يكون مظنة للارتياب والشك فيما احتواه وأنه كله يهدي ويرشد إلى سلوك طريق الخير والصلاح وتجنب طريق الشر والزيغ والضلال .

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾

والمعنى الإجمالي للآية أن الله يصف عباده المتقين بأنهم (يصدقون كل ماغاب عنهم كالرسول ﷺ لمن لم يره ومما أخبر به الرسول ﷺ و) يحافظون على الصلوات المفروضة بشروطها وأركانها وواجباتها ويؤدونها بالخشوع والطمأنينة ولا يضيعون حق الله فيما رزقهم من مال فينفقون منه على من وجبت عليهم نفقته ويؤدون زكاته الواجبة فيه ويتصدقون بما تيسر رجاء ثواب الله وابتغاء مرضاته .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾

تتحدث الآيات عن بقية أوصاف المتقين الذين اهتدوا بهذا القرآن ومن ذلك أنهم يؤمنون بجميع الكتب السماوية التي أنزلها الله عز وجل قبل النبي ﷺ مع إيمانهم بالكتاب

الخاتم المنزل على رسول الله ﷺ وهو القرآن الكريم وسائر ما أوحي لرسول الله ﷺ من السنة المطهرة كما أنهم يؤمنون بالدار الآخرة وما فيها من معاد وبعث وجزاء على ما جاءهم عن ربهم يقينا لا يخالطه شك ولا ريب وهؤلاء هم أصحاب المنزلة العالية عند الله الذين قد خالط الهدى قلوبهم واستحقوا الفلاح والنجاح وتحقيق مآربهم بالفوز في الدارين .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾

ذكر الله تعالى الصنف الثاني من أصناف الناس وهم الكافرون المعاندون المظهرون لكفرهم فبين سبحانه أنه كما كان القرآن هدى للمتقين فهؤلاء لا تنفعهم نذارة ولا يجدي معهم هداية ومهما بلغتهم النذر لا يؤمنون حيث إن الله قد أغلق عليهم قلوبهم أن تفقه أو تعي وأسماعهم أن تفهم أو تستجيب وجعل على بصرهم غطاء لا يظهر لهم معه الآيات الباهرات والدلائل الواضحات وكل ذلك بعدله سبحانه وباستحقاق منهم لذلك وسوف يجازيهم بكفرهم آلاما شديدة لا تفارقهم ولا تنقطع عنهم في حياتهم الآخرة .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨﴾

﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠﴾

ذكر الله تعالى الصنف الثالث من الناس وهم المنافقون وهم وإن كانوا داخلين في الصنف الثاني وهم الكفار من حيث الجملة إلا أنهم تميزوا عنهم بأنهم يدعون الإيمان حيث ينطقون بما يدل عليه وهو أنهم يؤمنون بالله وباليوم الآخر وهم في حقيقة الأمر ليسوا بمؤمنين حيث يكذبون في قولهم ذلك ويظنون أنهم يخدعون الله والمؤمنين بذلك الكذب ولا يدركون ولا يحسون أنهم إنما يخدعون أنفسهم لما يترتب على فعلهم من إمهالهم في الدنيا ثم ينالهم العذاب الأليم في الآخرة بسبب كذبهم وقد زادهم الله رجسا إلى رجسهم وكفرا إلى كفرهم بسبب هذه المخادعة .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١﴾

﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢﴾

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾

﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾

﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥﴾

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾

يذكر تعالى طرفا من صفات هؤلاء المنافقين سواء منهم من كان أصلا من أهل الكتاب أو من مشركي العرب فهم يفسدون في الأرض بأفعالهم الخبيثة من إبطان للكفر وموالاة للكافرين وعمل بمعصية الله فإذا نهوا عن ذلك ادعوا أنهم إنما يصلحون بهذه الأفعال تلبيسا على الناصحين لهم فرد الله عليهم بأنه لا إفساد أعظم مما يفعلونه فهم المفسدون حقا وإن كانوا لا يشعرون بذلك فقد فقدوا الإحساس بانغماسهم في هذا النفاق ، وإذا نوصحوا أن يسلكوا طريقة أهل الإيمان الحقة من صحابة رسول الله ممن أسلم من مشركي العرب ومن أهل الكتاب استنكروا ذلك ووصفوا هؤلاء الأخيار بالسفه والطيش وخفة العقل فرد الله عليهم بأنه لا سفاهة أعظم من سفاهتهم ولكنهم لا يعلمون حقيقتهم لما أغلقت عليه قلوبهم من كفر ونفاق ، وهم هكذا مع المؤمنين فإذا انفردوا بمردتهم وعتاة الكفر من يهود أظهروا لهم ما يبطنونه من كفر وأنهم ما زالوا على العهد معهم وأن ما أظهروه من إيمان بلسانهم إنما هو كيد واستهزاء وسخرية من المؤمنين الصادقين فرد الله عليهم بأن الحقيقة أن الله يعلم سرهم وأنه يملي لهم ويمهلهم ليزدادوا ضلالا وغيا حتى يوقع بهم نكاله ونقمته ويفجؤهم بما يجعلهم محل الاستهزاء والسخرية حقيقة ، فهؤلاء البعداء قد استحقوا ذلك باستبدالهم الإيمان الذي فطرهم الله عليه وكان في متناولهم بالكفر والعناد فبئس الاختيار ويا خسارة البيع وما أعظمها ضلالة .

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

يضرب الله مثلين للمنافقين لتوضيح حالهم للمؤمنين والتحذير من صنيعهم فمثل من آمن منهم بعد أن كان في ظلمة الكفر فظهر له بصيص من نور الهداية لينتفع به وينفع من حوله فإذا به ينكص على عقبيه فكفر وأعرض فبقي في ظلمات الكفر كما أنه عندما يموت يذهب عنه هذا النور نور الهداية الذي أصبح به مسلما في الظاهر وعايش به المسلمين ولم يجد إلا ظلمة كفره والعياذ بالله كمثل رجل في ظلمة قام بإشعال نار يهتدي بها ويهدي بها من حوله فإذا بهذه النار تخمد وتنطفئ فبقي هو ومن معه في الظلمة حائرين مترددين . فهم في هذه الحال صم عن سماع الحق بكم عن التكلم به عمي عن الاهتداء إليه فهم لا يرجعون إلى الهدى .

والمثل الآخر لمن يعيش منتفعا بين المؤمنين بالإسلام لكنه في ظلمات الكفر الذي يبطنه وبين قوارع الوعيد وتباشير الوعد وما يتحقق منه في الدنيا مما يبهره وما يسمع من تهديد وتبكيت وفضح للمنافقين يخشى في كل لحظة أن يفضح ويؤخذ بجريرته كلما أتى خير

هرع للمشاركة فيه وإذا جاء بلاء انقلب على وجهه ؛ مثل الله هؤلاء بقوم أصابهم مطر بما يحمله من خير إلا أنه أتاهم وهم في ظلمة لا يبصرون وفيه رعد مفزع وبرق ينير لهم طريقهم وفيه من الصواعق المخيفة بأصواتها المفزعة ما يجعلهم يسدون آذانهم لئلا يسمعوا الصوت وهم مع ذلك في حذر وخوف أن تصيبهم الصاعقة فتهلكهم وهذا البرق من شدة لمعانه يكاد يخطف أبصارهم وكلما جاء ضوؤه مشوا واستفادوا منه فإذا انقطع الضوء قاموا في مكانهم .

وهؤلاء الكافرين الله سبحانه محيط بهم وقادر عليهم ولو شاء لأفقدهم السمع والبصر فهو القدير على كل شيء .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

يأمر الله تعالى الناس مؤمنهم وكافرهم بإفراده بالعبادة وتوحيده سبحانه المؤمن بالثبات على ذلك والكافر بالدخول فيه لأنه المستحق لذلك حيث رباهم بنعمه بعد أن أوجدهم من العدم هم ومن قبلهم وجعل لهم الأرض ممهدة سهلة وجعل السماء فوقهم تظلهم وأنزل عليهم مما فيها من سحب ماء عذبا ينبت لهم به الثمرات التي قوام حياتهم وحياة بهائمهم عليها ونهاهم عن أن يشركوا به شيئا ويدعوا من دونه أولياء وهم يعلمون تفرده بالربوبية المستلزم تفرده بالألوهية .

ثم تحدى الله تعالى كل من كان في شك من هذا القرآن المنزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ أن يجتمعوا جميعا فيأتوا بسورة واحدة تماثل ما جاء فيه في بلاغتها ومعانيها العظيمة وأن يدعوا من يعينهم أو يشهد لهم في ذلك إن كانوا صادقين في دعواهم فإن لم يستطيعوا ذلك وقد علم الله منهم أنهم لن يستطيعوه أبدا فلزم منهم التسليم وأن يسعوا ليجنبوا أنفسهم عقاب الله الأليم في نار إنما توقد وتتوهج ويزاد لهيبها كلما ألقي فيها الناس المستحقون لعذاب الله والحجارة المكونة من الكبريت الذي يزيد النار اشتعالا وتوهجا وهذه النار قد هيأها الله تعالى وجهزها لمن كفر به وجحد ما أمر به من توحيده وعبادته .

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗاۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾

يأمر الله تعالى رسوله ﷺ وكل من يصح منه هذا الفعل أن يخبر المؤمنين الصادقين الذين صدق عملهم الصالح إيمانهم بما يسرهم ويفرحهم ويدخل البشر عليهم وهو أن الله تعالى أعد لهم جنات عظيمة ذات درجات عالية تجري أنهارها المختلفة طيبة المشارب من تحت

أشجارها الملتفة وغرفها المنيفة وهم في هذه البساتين يأتيهم الخدم من الولدان بالثمار التي تشبه في الاسم والمظهر ثمار الدنيا وتختلف عنها في الحقيقة والمخبر فيقولون متعجبين هذا مثل الذي نعرفه من قبل لكنه يختلف عنه اختلافا عظيما وهذه الثمار كما أنها تشبه ثمار الدنيا فيما تقدم هي متشابهة فيما بينها ليس فيها رديء وجيد بل كلها في أعلى الدرجات كما أنها وإن تشابهت فيما بينها فلكل منها طعم لذيذ مختلف وقد أعد الله جل وعلا لهم في هذه الجنة الأزواج من نساء الدنيا ومن حور الجنان اللاتي خلقهن الله لهم خصيصا قد طهرهن الله من كل أذى فلا حيض ولا بزاق ولا عرق ولا قذر مع حسن أخلاق وطيب معاشرة ليتمتعوا بجماعهن والتلذذ بهن بلا مني ولا حمل في غير ملالة ولا تعب لا ينقطع عنهم هذا النعيم أبد الآبدين .

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾

﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾

يذكر الله جل وعلا أنه لا يستنكف من ذكر المخلوقات الحقيرة في ضربه الأمثال للناس كالبعوضة وما هو أحقر منها والمؤمنون يعلمون يقينا أن ما جاءهم من ربهم هو الحق الذي لا مرية فيه وأما الكافرون فهم الذين لا يفقهون عن الله فيتهكمون ويستخفون بهذه الأمثال قائلين : مافائدتها ؟ وما المراد منها ؟ وهم لا يعقلون ما يترتب على ذلك من ضلال أقوام كثيرين وهداية آخرين مثلهم والذين قدر الله عليهم الضلال بذلك إنما

هم الذين خرجوا عن دين الله ونقضوا عهد الله سواء منهم من ناقض فطرته التي فطره الله عليها فنقض عهد الله المأخوذ عليه في صلب أبيه آدم ومن نقض عهد الله المأخوذ عليه من أهل الكتاب والعلماء بعدم كتمان ما أنزل الله ويعرضون عن كل ما أمرهم الله بوصله وفعله فيقطعونه ولا يفعلونه ومن أعظم ذلك الرحم فما جزاء أمثال هؤلاء إلا الخسارة والندامة يوم القيامة .

﴿ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٩﴾

يقول تعالى، استنكاراً وتعجيباً، من حال هؤلاء الكفار: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ}، وأنتم تعلمون ما كنتم عليه من العدم، حيث أوجدكم الله تعالى بقدرته، ثم يميتكم ويسلبكم هذه الحياة؟! وهو قد فعل ذلك، وسوف يفعل ما بعده، وهو إحياؤكم بعد هذا الموت ورجوعكم إليه ليحاسبكم.

ثم امتنّ الله تعالى بتسخيره الأرض وما عليها للإنسان؛ فقد خلق له ما فيها جميعاً، كما خلق السماء إتماماً لهذه النعمة، فجعلها سبع سموات، فأحسن خلْقها، وأحكمه لحِكَم عالية عنده. فهو سبحانه بكل شيء عليم، يعلم ماينفع خلْقه ويصلح شأنهم.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

يمتنّ الله تعالى على عباده، بتكريمه لأبيهم آدم، حيث جعله خليفة لِمَن سبقه في الأرض من الجنّ، ويخلفه ذريّتُه فيها قرْناً بعد قرْن. وأخبر ملائكتَه بذلك، فسألوا على سبيل التعجب ممّا رأوه من فساد مَن سكن الأرض قبل هذا مِن الجنّ، وممّا أطلعهم الله عليه من حصول القتال والفساد في الأرض من هذا الخلْق فقالوا} :أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء{؟ وتساءلوا: ألاَ يُمكن أن يُغني عن ذلك وجودهم هم، حيث ينزّهون الله تعالى ويعظِّمونه، ويقومون له بما يستحق؟ فأعلمهم سبحانه أنه قد علِم ما لم يعلموه مِن حِكَم عظيمة وأمور تترتب على خلق هذا الخلق. ثم أكرم الله آدمَ بالعلْم فعلّمه الأسماء كلها فلم يترك شيئا من الذوات والأفعال إلاّ ألهمه اسمه مهما دق وحقر، ثم عرض هذه

المُسمَّيات على الملائكة ليُعلمهم فضلَ هذا المخلوق،} فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {في ظنّكم أن هذا المخلوق سيكون للفساد والقتل، فردّوا العلْم إليه سبحانه، وأنهم لا يعلمون إلاّ ما أعلمهم إياه؛ فهو العليم المحيط بكل شيء علماً، الحكيم الذي وسعت حكمته كل شيء. فأمَر آدمَ بإخبارهم بما عجزوا عنه. فلمّا فعَل أخبرهم الله أنه هو العالِم بما في الغيب ممّا يتعلق بهذا الخلق وغيره من أمر السموات والأرض، وأنه قد علم منهم ما يظهرونه من خوف ممّا يترتب على هذا الخلق من فساد وما يكتمونه مما يدور في أنفسهم من تعجب منه واستشكال للحكمة من وجوده، وشعور بأنهم أوْلى منه وأكرم على الله، وحصول الحسد ممّن بينهم له وهو عدو الله إبليس.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

يُذكِّر الله –سبحانه وتعالى– بنعمة أخرى كرّم الله بها الإنسان، حيث أمَر ملائكته الكرام أن يسجدوا لأصله، وهو نبيّ الله آدم –عليه السلام– سجود تحيّة وتكريم؛ فبادروا إلى طاعته سبحانه، ما عدا إبليس لعنه الله الذي كان من الجن؛ وهم صنف من المخلوقات مكلَّف لم يجبل على الطاعة، فعاند أمْر الله، واستكبر عن طاعة ربه، ورفض الانصياع لهذا الأمر، واعترض على حُكم الخالق –جل وعلا–، فكفر بذلك كفْر الإباء والاستكبار الناقل عن الإيمان.

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾

ذكر سبحانه أنه امتنّ على آدم بإحلاله له ولزوجه حواء التي خلَقها منه، وله سكنى الجنة؛ وكانت مواصفاتها مختلفة عن جنات النعيم التي أعدّها الله جزاء في الآخرة، وأن يأكلا منها أكلاً رغداً هنيئاً، لا تعَبَ فيه ولا مشقة، من حيث شاءا، إلاّ من شجرة واحدة نهاهما عن الأكل منها ابتلاءً واختباراً؛ وأخبرهما إنْ أكلا منها كانا ظالمَيْن مفرطين قد عصيَا ربَّهما. فتحايل الشيطان لعنه الله حتى تمكّن من الوسوسة لهما، وأوقعهما في الخطإ والزلل بإغرائهما بالأكل من هذه الشجرة؛ فكان ذلك سببا في خروجهما من الجنة وما كانا فيه من النعيم. وقضى الله تعالى عليهما وعلى إبليس بالهبوط إلى الأرض، يستقرون فيها وينتفعون بمتاعها، مع بقاء العداء بينهم إلى أن يأذن الله بالقيامة في وقت علْمُه عنده سبحانه.

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾

﴿ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨﴾

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾

يذكر سبحانه إنعامه على آدم، حيث علّمه كلمات أوحاها إليه، يستغفر بها من ذنبه، ويتوب بها إلى ربّه، ومن ذلك قوله{ :رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ

مِنَ الْخَاسِرِينَ .}فقال هذه الكلمات، فتاب الله عليه وتجاوز عنه، فغفر له زلّته. ثم أمَره بالهبوط إلى الأرض، مؤكِّداً لأمره السابق الذي لم ترفعه التوبة، لأنه أراد ذلك قدَراً، وأعلَمه بأنه سبحانه سوف يُرسل رسلاً ويُنزل كتباً فيها هداية منه تعالى؛ فمن اتّبعها يكون من أهل الجنة الذين لا خوف عليهم في هذه الدار أن يفارقوها، ولا يعتريهم الحزن على ما تركوا من الدنيا. وأمّا الذين كفروا بالله وكذّبوا رسله وما جاؤوا به، فمأواهم النار لا يفارقونها أبداً ولا يخرجون منها.

﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِىٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّـٰىَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾

﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾

﴿ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَـٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

يأمر تعالى فريقاً من بني آدم ممّن كفَر بالهدى الذي أنزله الله تعالى وكذّب به، وهم بنو إسرائيل ذرية نبي الله يعقوب –عليه السلام–، بأن يتذكّروا نعمَه التي أنعمها عليهم بإفاضة كثير منها على آبائهم، حيث أرسل لهم الرسل، وبعث إليهم الكتب، وآتاهم ما لم يُؤت أحداً من العالمين، وفضلهم واصطفاهم، وأورثهم الأرض، وجعلهم ملوكاً، ممّا يستلزم منهم أن يحقِّقوا ما أخذه الله عليهم من عهد وميثاق، حتى يحقّق لهم ما وعدَهم مِن الأجر الحسَن والثواب الجزيل، وتكفير السيئات ودخول الجنات، وأن يخافوا عقابَه ونقمته إن كفروا نعمته.

ثم أمرهم متمثّلين في علمائهم الذين يعرفون الحق ويعلمون صدْق النبي –صلى الله عليه

وسلم– وصفته بالإيمان، بما أنزله على رسوله –صلى الله عليه وسلم –تصديقاً لِما عندهم في كتبهم، ونهاهم أن يكونوا في طليعة الكافرين به بدلاً من أن يكونوا في أوائل المصدِّقين به كما يقتضيه حالهم، ناهياً لهم أن يشتروا متاع الدنيا الزائل من مال وجاه وسلطة، بتكذيبهم بآيات الله وبيناته الواضحات. وأمرهم بأن يصونوا أنفسهم من عقاب الله، بإظهار الحق الذي كتموه للناس. ونهاهم أن يخلطوا على الناس ويضلِّلوهم عن الحق، ويكتموا عنهم ما يعرفون من نصوص كتابهم وبشارات أنبيائهم به –صلى الله عليه وسلم–، وهم على معرفة وعلْم بهذا الحق وبحقيقة ما يفعلون من تلبيس.

ثم أمرهم بالدخول في دين الله كما دخل فيه مَن دخل من ذوي السعادة، فيصلُّوا مع المصلِّين، ويُزكّوا مع المُزكِّين، ويكونوا في جملة الخاشعين الخاضعين لربّ العالمين.

﴿ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾

﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦﴾

ينعى –سبحانه وتعالى– على أحبار بني إسرائيل، أنهم يأمرون غيرهم بأمور من البِرّ والخير، ويتركون عامدين العمل بما في كتابهم، حرصاً على الدنيا وما فيها مِن جاه ورياسة؛ وكان الأوْلى بهم أن يبدؤوا بأنفسهم، فيؤمنوا بما يتلُونه من أمْر باتّباع هذا النبي– صلى الله عليه وسلم– والإيمان بما جاء به؛ فهذا هو مسلك العقلاء. وعليهم أنْ يستعينوا على مواجهة فتن الحياة وزخارفها، وطلب الآخرة وما أعد الله فيها للمؤمنين به، بالصبر –وهو: حبس النفس على ما تكره من طاعات وترك للمعاصي، ورضى بالقضاء–، والصلاة –وهي: الصلة بين العبد وربه–. ولا شكّ أن تطبيقهم لهذه الوصية عظيم

وكبير، لا يستطيعه إلاّ مَن ذلّت نفسه لله، وخضع له، وعلِم علْماً يقينياً أنه راجع لربه، وسيلاقيه فيسأله ويحاسبه.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨﴾

﴿ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩﴾

يُذكّر سبحانه بني إسرائيل بجملة مِن نِعمه الكثيرة عليهم؛ ومنها: أنه فضّلهم على أمم زمانهم بأمور كثيرة، منها ما تقدّم ذكْره، حيث جعل فيهم الأنبياء وجعل منهم الملوك، وأنّ ذلك ممّا يستوجب منهم أن يقدروا الله حق قدْره فيتّقوا عذابه، ويحذروه في يوم القيامة، حيث لا يُغني أحد عن أحد، ولا تنفع شفاعة مَن يشفع ولا يُقبل الفداء لأحد من الكافرين، ولا ناصر لهم يومئذ. ثم ذكّرهم سبحانه بنعمة عظيمة أنعمَها عليهم، وهي أنه أنقذهم مِن فرعون وأنصاره وأعوانه وبطشهم بهم؛ فقد كان يذبّح الذكور من ذرّيّة بني إسرائيل، ويستبقي النساء أحياء. وهذه نعمة من ربهم عظيمة، لا يسعُهم شكرها حيث أنقذهم من الانقراض وأهلك عدوّهم.

﴿ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

طائفة أخرى من النِّعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل يُذكِّرهم بها، ومن ذلك أنه سبحانه خرَق لهم نواميس هذا الكون، فجعل لهم البحر فرقتيْن، وخلق لهم فيه طريقاً ساروا عليه، فنجَوْا من فرعون وجنوده وأتباعه، حيث أطبق الله البحر على هؤلاء أمام أعينهم بعدما جاوزوه.

ومِن ذلك أيضاً: ما حدث عندما وَقّت الله لموسى –عليه السلام –موعداً لكلامه بأربعين ليلة وذهب موسى للميقات، عبدت بنو إسرائيل –مِن بعْد ترك موسى لهم– عجلاً صنعوه من الحُلي التي كانت معهم، بمشورة رجل معهم يقال له: السامري، في قصة يأتي تفصيلها في غير هذا الموضع. وقد نهاهم هارون –عليه السلام–، فلم يلتفتوا له. ومع ذلك، عفا الله –عز وجل– عنهم، وتجاوز عن هذا الجُرم العظيم، لعلّهم يفطنون لهذه النعمة العظيمة ويؤدّون شكْرها.

ومن ذلك أيضاً: أنّ الله أنعم عليهم بإنزال توراته على نبيّه موسى –عليه السلام–، فيها

من الهدى والفرقان والآيات البينات والدلائل على صدْقها وصدْق من جاء بها، لعلّهم يأخذوا بتعاليمها وما فيها من خير، فيهتدوا بذلك ويُفلحوا في دنياهم وأخراهم.

ومن ذلك أيضاً: ما حصل عندما شرع الله لهم طريقة توبتهم من عبادة غيره –وهو العجل الذي اتخذوه إلهاً من دونه–، فقال لهم موسى –عليه السلام–: إنهم قد ظلموا أنفسهم بهذه الفعلة الشنعاء، وإن توبتهم إلى خالقهم الذي برأهم على الفطرة تكون بقتْل بعضهم البعض ليلقوا ربهم مطهَّرين من هذا الشرك العظيم الذي أحدثوه، فلقاؤهم ربهم مطهرين قد تاب الله عليهم وأحلّ عليهم رضوانه في أخراهم خيرٌ لهم من بقائهم في هذه الدنيا متلبّسين بهذا الشرك. ثم رحمهم الله تعالى فرفَع عنهم القتل بعدما قُتل منهم من قُتل، وتاب على البقية رحمة منه وفضلاً؛ فهو التواب الرحيم .

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

ومن مواقف بني إسرائيل المُخزية مع موسى– عليه السلام–، ومع ذلك وسعتهم رحمة الله تعالى–: قولهم لنبيّهم إنهم لن يُصدِّقوه فيما أخبرهم به مِن تكليم الله له وإنزاله التوراة عليه، حتى يرَوا الله بأعينهم؛ فعاقبهم الله تعالى بتكذيبهم لنبيّهم، وتعنّتهم في سؤالهم، واشتراطهم على ربّهم، بأن أصابهم بصاعقة من السماء. وهي قصفة رعد أماتهم صوتُها الرهيب، وهم ينظرون إلى بعضهم البعض وإلى نار هذه الصاعقة. ثم امتن الله عليهم بأن بعَثهم وردّ إليهم أرواحهم بعد هذه الموتة الفظيعة، واستكمل لهم آجالهم، وفتح لهم باب

التوبة، ولم يجعل هذه الموتة قبضاً لأرواحهم على الكفر والتعنت؛ وهذا فضل عظيم منه، يستوجب شكرَهم واعترافَهم بفضله عليهم.

كما أنه تعالى امتنّ عليهم بمنن عظيمة أخرى، ومنها: أنه جعل ما يشبه السحاب الأبيض الرقيق البارد يُظلّهم ويحميهم من وهج الشمس في الصحراء. وأنزل عليهم المنّ وهو سائل لزج لذيذ الطعم يشبه العسل كان شراباً لهم، وأنبت منه نباتاً لذيذ الطعم مباركاً فيه شفاء، وهو الكَمْأَة .ورزقهم السلوى وهي: طير يشبه السمانى يستلذون بطعمه دون جهد منهم. وأُمروا ألاّ يدّخروا منه، فطمعوا وادخروا، فأنتن اللحم عليهم، ولو لم يفعلوا لما خَنَزَ لحم أبداً. فقابلوا نِعَم الله بالعصيان وعدم العرفان، فما ضر ذلك خالقَهم، وما كان فيه إلاّ أنهم ظلموا أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعقابه.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

يُذكّر تعالى بني إسرائيل بنعمة أخرى مِن نِعمِه التي أنعمها عليهم، وما قابلوها به من عصيان وعتوّ وتمرّد؛ حيث أمَرهم بدخول الأرض المقدسة –وهي: بيت المقدس– بعد عفْوه ورفْعه التِّيه عنهم وتمكينه إياهم مِن فتحها، وما حصل لهم في ذلك من معجزة وتأييد منه سبحانه، وما أغدق عليهم فيها من خيرات وبركات ونِعَم يتمتّعون بها فيها حيث شاؤوا .وأمرهم أن يدخلوا من بابها مُطَأْطِئِي رؤوسهم راكعين لله، خاضعين متذلِّلين

طالبين منه حطّ ذنوبهم عنهم ومغفرته لهم؛ فبدّلوا ما أُمروا به في القول والفعل، فدخلوا الباب يزحفون على أَسْتَاهِهِم ويقولون كلاماً مخترَعاً من عند أنفسهم استهزاءً، معناه: حبة في شعيرة أو نحو ذلك؛ فظلموا أنفسهم، فأنزل الله عليهم عقابه وبأسه بعذاب من السماء، وهو الطاعون الذي أصابهم بسبب فسْقهم وخروجهم عن طاعته وعتوّهم وعنادهم.

﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

يَذْكُر سبحانه موقفاً آخر مِن مواقف إنعامه على هؤلاء الجاحدين من بني إسرائيل، وذلك حين استسقى موسى –عليه السلام– لهم، حينما احتاجوا إلى الماء في التّيه، فأمره سبحانه أن يضرب بعصاه التي يحملها معه حجَراً مربعاً جعله الله بين ظهرانيهم؛

فانفجرت من جوانبه الأربعة اثنتا عشرة عيناً، من كل جانب ثلاث عيون، لكل سِبْطٍ من أسباطهم عيْن يشربون منها لا يشركهم فيها غيرهم، منعاً للتنازع ودرءاً للشحناء. فيسّر لهم الشراب والطعام بهذه المعجزات الباهرات، ونهاهم عن الإفساد في الأرض بتعدّي حدود الله وكفْر نعمته. ولكنهم بطروا، ولم يقدروا نعمة الله عليهم، وتذمّروا من استمرارهم على هذا الطعام الطيب مِن المنّ والسلوى، وطالبوا نبيهم موسى –عليه السلام– بوقاحة وفظاظة أن يطلب من ربه أن يُنْبِت لهم في تيههم ما عهدوه من البقول، والقثاء، والثوم، والعدس، والبصل. فما كان منه– عليه السلام– إلا أن وَبَّخَهُم ولامهم على استبدالهم الطعام المبارك الطيب النافع بما هو دونه بكثير، وأخبرهم أنّ طلبهم وسُؤْلَهم موجود بأيّ مصر من الأمصار ينزلوه إذا خرجوا من هذا التِّيه. وقد عاقبهم الله تعالى بأن جعل الذلة والصغار والمسكنة ملازماً لهم في صور شتى، من احتقار الأمم لهم، وضرب الجزية عليهم، وتشرذمهم في المعمورة، وانطوائهم على أنفسهم، وبغض الناس لهم. وأنزل الله غضبه بهم، بسبب كفرهم بكل هذه الآيات الواضحات والمعجزات الباهرات، وقتلهم أنبياءه الكرام، وانهماكهم في شتّى المعاصي وأنواع الاعتداء.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

يقرّر الله سبحانه: أنّ مَن آمن مِن جميع الطوائف إيماناً حقيقياً بالله واليوم الآخر، وعمل عملاً صالحاً يُصدِّق إيمانه، موافقاً لما جاء به النبي المرسل، سواء من الذين أظهروا الإيمان من هذه الأمة، أو من اليهود وهم أتباع موسى –عليه السلام–، أو من النصارى وهم أتباع عيسى –عليه السلام–، أو من الصابئين وهم غير اليهود والنصارى أياً كان اعتقادهم، فإن لهم أجْرهم عند ربهم كاملاً يوم القيامة، لا يخافون أن يزول عنهم ما هم فيه من نعيم الآخرة، ولا يحزنون على ما فاتهم في الدنيا.

ثم يُذكّر الله تعالى بني إسرائيل بموقف آخر مِن مواقفهم، حيث لم يقرّوا بأخذ أحكام التوراة، ويتعهّدوا بالعمل بها بجد وإخلاص ليتقوا عذاب الله ونقمته، إلاّ بعد أن رفَع فوقهم جبل الطور فأصبح على رؤوسهم كالظلة؛ ولكنهم لم يُوفوا بذلك، فتولَّوا، فكانوا ممن خسروا أجرهم ولم يربحوا .

ثم أخبر تعالى: أنهم قد علموا ما حلّ مِن غضب الله بقوم منهم، وهم الذين تجاوزا حد الله وانتهكوا حرمة يوم السبت، حيث نهاهم الله عن الصيد في ذلك اليوم، فتحايلوا على أمر الله ونصبوا شباكهم يوم الجمعة وجمعوا الصيد يوم الأحد؛ فعاقبهم الله بأن مسخهم على صورة قبيحة لحيوانات مستقذرة؛ فجعلهم قردة جزاء لهم على فِعلتهم القبيحة،

وجعل الله هذه القرية وما حلّ بها من عقوبة رادعاً لمَن كانوا في هذا الزمان حول هذه القرية ولمن أتوْا بعدها ممّن سمع بخبرها؛ فكان في ذلك التذكير والزجر لمن اتقى الله وخاف عقابه.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

﴿ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٧٣ ﴾

يذكر تعالى موقفاً آخر من مواقف تعنّتهم، وسوء أدبهم مع نبي الله موسى –عليه السلام–، وما تضمّنه من نعمة عليهم ومعجزة باهرة، ومع ذلك لم تُجْد فيهم نفعاً. فقد أمر الله –عز وجل– موسى –عليه السلام –أن يطلب من قومه، عندما سألوه عن أمر قتيل اختلفوا فيمن قتله على ما جاء ذكره في الآثار، أن يذبحوا بقرة، فما كان منهم إلاّ أن ظنوا في نبيّهم أنه يهزأ بهم ويسخر؛ فهم يسألونه عن قاتل القتيل، ويجيبهم بأمرهم أن يذبحوا بقرة! فبيّن لهم –عليه السلام– أنّ الاستهزاء بالناس هو مِن فعْل الجاهلين، وقد استعاذ بالله أن يكون منهم، وهو نبي الله ورسوله وكليمه. ومع ذلك لم يسارعوا في تحقيق ما أمر الله به، ولو سارعوا لأجزأهم وكان خيراً لهم، ولكنهم شدّدوا على أنفسهم بسبب تلكّئهم في تقديم الطاعة لله، وطلبوا وصفاً لهذه البقرة يبيّنه الله لهم .فأعطاهم موسى – عليه السلام– الوصف المُوحى إليه من الله، وفيه: أنها بقرة ليست بالكبيرة المُسِنّة، ولا بالصغيرة البكر التي لم تلد، وإنما هي وسط ونصَف بين هذيْن الوصفيْن، وهي أقوى وأفضل ما يكون. وأمرهم أن يسارعوا لفعْل ما أمروا به، ولا يزدادوا في هذا العنت. فما كان منهم إلاّ أن طالبوه بأن يسأل الله تعالى أن يبيّن لهم لون هذه البقرة، فجاء التشديد من الله بأن قال لهم :إنها بقرة لونها لون أصفر فاقع صاف، تُدخل البهجة والسرور والإعجاب على مَن نظر إليها من جمالها. فما كان منهم إلاّ أن زادوا في التشديد على أنفسهم، فطالبوا نبيّهم أن يدعو الله أن يبيّن لهم ما وصْف هذه البقرة، حيث زعموا أن البقر قد اختلط عليهم تشابهه، ولم يتبيّنوا البقرة المطلوبة، وأنه تعالى إن شاء سوف يهديهم إلى ما يريده منهم. فذكر لهم موسى –عليه السلام– أن الله تعالى بَيَّنَ لهم وصفاً آخر لها، وهو: أنها بقرة غير مذلّلة بالعمل، فهي لا تثير أرضاً للحراثة، ولا تسقي زرعاً بسانية، ولا غيرها؛ وهي مبرأة من كل عيب، سليمة الخلقة، لا خلط في لونها بلون آخر

حتى ظِلْفها وقرنها. فما وجدوا هذه الأوصاف مجتمعة إلاّ في بقرة واحدة، فقالوا لنبيهم –على عادتهم في سوء الأدب{ :–الآنَ جِئْتَ بِالْحَقّ}، حيث وجدوا الوصف بعيْنه، وقد كان جاءهم بالحق من قبْلُ،– عليه السلام–. فأرادوا شراءها فلم يرض صاحبها إلاّ بأضعاف ثمنها، فاشتروها على مَضَضٍ وذبحوها، وقد كادوا ألاّ يفعلوا ذلك لأسباب عدّة، منها: ظنهم أن نبيهم يستهزئ بهم. ومنها: تعنّتهم في طلب وصْفها. ومنها: غلاء ثمنها.

ثم أمرهم نبيّهم في قصة الرجل الذي قُتل فيما بينهم، فاختلفوا وتنازعوا فيمن قتَله وأزهق نفْسه، وأراد الله أن يخرج الحقيقة المكتومة المخفاة: أن يضربوا القتيل ببعض هذه البقرة، فإن الله قد جعل ذلك آية لهم لإحياء الموتى. فلما ضربوه ببعض هذه البقرة، دَبَّت فيه الحياة، فأخبر بمَن قتَله، ثم عاد ميتاً كما كان. فكانت لهم في هذه القصة آيات عدّة أراهم الله تعالى إياها،لعَلّهمْ يعْقلونَ أمره ونهيه، وينتفعوا بذلك لآخرتهم .

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

يبين الله تعالى حالاً مِن أحوال بني إسرائيل السيئة، حيث غلبت القسوة وعدم الخوف من الله والتأثر بالمواعظ على قلوبهم، بعد ما رأوا من الآيات الباهرات، ومنها: إحياء هذا القتيل حتى شهد على قاتله؛ فغدت قلوبهم في قسوتها مثل قسوة الأحجار وصلابتها،

بل فاقت ذلك، لأن الحجارة على قساوتها تتفجّر بالماء الرقيق الذي يؤثر فيها تأثيراً بليغاً فيخرج من خلال صُدوعها أنهاراً، ومنها ما يتأثر تأثيراً أقل فيشقق الماء فيه شقوقاً صغيرة يخرج من خلالها، ومنها ما ينفصل عن بعضه فيتساقط من أماكنه العالية خشية من الله تعالى .

وهذه أمثلة لِما كان ينبغي أن تكون عليه قلوبهم مع المواعظ والآيات لو كانت حجارة، فأين قلوبهم من هذا التأثر؟! والله لا يغيب عنه أعمالهم السيئة هذه، وليس بغافل عنها. ثم أنكر سبحانه على المؤمنين طمعهم في أن يصدِّقهم هؤلاء اليهود، ويُذعنوا لهم فيتبعوا دينهم وأسلافهم، بعد كل ما رأوه من آيات بينات لم ينتفعوا بها، حتى إنّ فريقاً منهم، وهم مَن ذهب لميقات موسى مع ربه قد سمع بنفسه كلام الله لموسى –عليه السلام– عند الطور، ثم لمّا عادوا لقومهم حرّفوا هذا الكلام، فزادوا فيه ما ليس منه مِن بعد ما وَعَوْه وضبطوا ألفاظه؛ فكان تحريفهم على علْم منهم بأنهم كَذَبة عصاة مفترون، ومع ذلك فعلوه.

﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦﴾

﴿ أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٧﴾

﴿ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨﴾

﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩ ﴾

يُعدِّد تعالى أصنافاً مِن مُجرمي اليهود الذين لم ينتفعوا بالمواعظ ولم تخشع قلوبهم للآيات؛ فقد كان بعضهم إذا التقوْا بالمؤمنين قالوا لهم إنهم يؤمنون ببعثة النبي– صلى الله عليه وسلم–، ولكن للعرب خاصة، وذلك هروباً منهم من الانقياد له. وقد كانوا يستفتحون به على الذين كفروا –كما سيأتي بيانه–، فإذا خرجوا من عند المؤمنين وخلا بعضهم إلى بعض، قال بعضهم مستنكراً على مَن فعَل ذلك: كيف تحدِّثونهم بأنه رسول من عند الله، وأنّ لديكم علْمه في كتابكم لكنه ليس لكم؟ ثم هو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر ونجد في كتابنا، فيحتجّون عليكم بذلك ويلزمونكم باتّباعه من كتاب ربكم. اجحدوه ولا تُقرّوا به إن كنتم تعقلون!

وقد رد الله عليهم بأنه يعلم ما يُخفونه في أنفسهم وما يدور بينهم سراً، كما يعلم كذِبهم فيما يُعلنونه للمؤمنين وأنهم يعلمون ذلك؛ فهذا أشد في جُرمهم.

وصِنف آخر إنما هم جهلة لا يعرفون كتابهم ولا يقرؤونه، وإنما يتحدثون تقليداً بالأكاذيب التي يتلقّفونها من أحبار السوء. ومن ذلك: أنه ليس في كتابهم صفته –صلى الله عليه وسلم–، فيجحدون نبوّته بالظن الكاذب.

ثم توعّد الله تعالى بالوعيد الشديد والعذاب الأكيد أعظم الأصناف جرماً، وهم: هؤلاء الأحبار الذين يزيّنون لهؤلاء جميعاً الباطل، فيكتبون لهم الكذب بأيديهم ثم ينسبونه للتوراة، ويقولون لهم: إنه من عند الله، لتبقى لهم رياستهم في الدنيا والأموال التي يجنونها من وراء ذلك. فسوف يلقون العذاب الأليم على ما كتبتْه أيديهم، فضلّوا وأضلّوا به، وعلى ما كسبوه من وراء ذلك من مُتَعٍ فانية وظل زائل.

﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾

﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾

يذكر سبحانه افتراءً مِن افتراءات أحبار اليهود، وكذبة من كذباتهم، وتحريفاً من تحريفاتهم ممّا لَبَّسُوا به على عوامّهم؛ حيث ادّعوا أن الله تعالى لن يعذّبهم في النار إلاّ أياماً قليلة، وهي سبعة أيام مقابل مدة الدنيا المزعومة عندهم، وهي سبعة آلاف سنة عن كل ألْف سنة يوم، فأكذبهم الله تعالى، فأمر رسوله –صلى الله عليه وسلم– أن يقول لهم: هل لديكم عهد من الله يَعِدكم بذلك؟ فإن الله لا يُخلف وعْده؛ وإذ لم يكن كذلك فأنتم تفترون على الله، وتتقوّلون عليه ما لا تعلمون صحّته وقبول الله به. والصحيح: أنّ الذي وقع في الشرك مثْلكم، وأحاطت به خطاياه بسبب كُفره كما حصل لكم، فهؤلاء هم أصحاب النار المُلازمين لها، الذين لا يخرجون منها ولا يحيَوْن فيها ولا يموتون. وأمّا الذين

آمنوا وصَدَّقت أعمالهم الصالحة إيمانَهم، فهؤلاء هم أصحاب الجنة المُلازِمين لها، ينعمون أبداً لا يموتون.

ثم ذكر سبحانه: أنه أخذ على بني إسرائيل العهد والميثاق: أن لا يعبدوا سواه، وأن يُحسنوا إلى الوالديْن من الآباء والأمهات، ويُعطوا ذوي القربى– وهم: كلّ من له صلة قرابة بهم– حقوقهم من البِرّ والصلة، وكذا الإحسان إلى اليتامى –وهم: الصغار الذين فقدوا آباءهم–، والمساكين المُعْوِزين، وأن يأمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر، ويَدْعوا إلى توحيد الله، ويحرصوا على كل قول حسن نافع للناس، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة كما شرع الله تعالى. ثم بعد هذا الميثاق والعهد، لم يفعلوا ذلك ولم يوفوا به، بل تولّوْا عنه إعراضاً وعدم قبول له، إلاّ القليل منهم، وهم الذين صدقوا في إيمانهم ووفّوا بما عاهدوا الله عليه.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾

يذكر تعالى طامّة أخرى من طوامّ بني إسرائيل، حيث أخذ عليهم الميثاق والعهد ألاّ يقتل بعضهم بعضاً، وألاّ يُخرج بعضهم بعضاً من داره، وأقرّوا بذلك العهد، وشهدوا على أنفسهم بذلك، وبعد كلّ هذه المواثيق إذا هُم يقتل بعضهم بعضاً كما حدث في قتال كلّ طائفة منهم بجوار حليفها ضد الطائفة الأخرى، ويُخرج بعضهم بعضاً من داره، وتُناصر كلّ طائفة حلفاءها من المشركين على الطائفة الأخرى، إثماً وعدواناً بمخالفة أوامر التوراة، وتجاوز حدود هذا العهد المأخوذ عليهم. ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، فدَتْ كلّ طائفة منهم أسراها من الطائفة الأخرى ببذل المال للفداء، بل ربما بذلوا الفداء للمشركين في أسرى مَن قاتلوهم بالأمس. فعيّرهم الله تعالى باتّباعهم تعاليم التوراة في الفداء، مع تركهم الشنيع لتعاليمها في تحريم قتْل بعضهم البعض ومظاهرة المشركين على إخوانهم، وتوعَّدهم تعالى بأنّ جزاءهم وجزاءَ كلِّ مَن كان هذا فعْله منهم: الخزي والعار في الدنيا، والعذاب الشديد الأكيد يوم القيامة. فالله ليس بغافل عن هذه الأفعال الصادرة منهم، التي اشتروا بها متاع الدنيا الزائل من أحلافهم ومصالحهم الزائلة؛ فلا يرحمهم الله تعالى فيخفف عنهم عذابه، ولا يُوجد مَن يَنصرهم وُينقذهم من بطشِه سبحانه، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ

رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾

يذكر تعالى: أنه قد أنعم على بني إسرائيل بنعمة عظيمة، بل هي أعظم نعمة عليهم؛ حيث أنزل على موسى –عليه السلام –التوراة الشاملة للهدى والنور، ثم أتبعه بطائفة من الرسل المكرمين يتلو بعضهم بعضاً ليسوسوا بني إسرائيل، حتى ختمهم بالنبي الكريم عيسى بن مريم –عليه السلام –الذي أيده بالآيات المعجزات والدلائل الباهرات التي تشهد بصدْقه، وقوّاه ونصَره بالمَلَك الكريم المطهَّر: جبريل– عليه السلام–، منذ صغره. فكان مقابلة ذلك من هؤلاء المجرمين الجاحدين، أن ردّوا الحق الذي جاءهم به هؤلاء الأنبياء، مستكبرين عنه، كلّما خالف ما تهواه وتحبّه نفوسهم. فكذّبوا بعضاً من أنبيائهم، ووصل بهم الجُرم إلى قتْلهم بعض أنبيائهم، كما فعلوا مع يحيى وزكريا –عليهما السلام–. وبقي ذلك في أبنائهم، حتى همّوا بذلك مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فوضعوا له السُّمّ، فلم يُمكِّنهم الله مِن قتْله فوراً، ليُكمل البلاغ، حتى حان أوانُ موته، فجمع له الله الشهادة مع النبوة، حيث مات مِن أثر هذا السّمّ.

كما ذكر الله تعالى صورة مِن صُوَر ردِّهم الحق من أنبياء الله، حيث قالوا للنبي –صلى الله عليه وسلم–: إن قلوبهم لا تعي ما يقول ولا تفهمه، فهي مغلّفة، عليها الأغشية تمنعها من أن تعِيَ كلامه؛ فبيّن الله سبحانه أنّ ذلك بسبب طرْده إياهم من رحمته، وطبْعِه الذي طبَعه على هذه القلوب بسبب كفرهم وعنادهم، فلا يحصل لهم الإيمان إلاّ للقليل منهم، الذي ترك العناد والمكابرة، ونجا من هذا اللّعْن والطّبْع.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾

﴿ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩٠﴾

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩١﴾

﴿ ۞ وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ٩٢﴾

يذكر –سبحانه وتعالى– حال اليهود في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم–، استكمالاً لِما سبق مِن ردِّهم رسالته، بأنّ على قلوبهم الأغشية التي تمنعهم من الإيمان به؛ فيبيّن سبحانه أنهم عندما جاءهم الكتاب المنزل من الله تعالى، المصدِّق لما بين يديهم من التوراة، الموافق لما فيها بصدْق بعثة النبي –صلى الله عليه وسلم–، ردّوا ذلك وكفروا به، مع أنهم كانوا يذكرون ذلك للمشركين من الأوس والخزرج، ويبشِّرون ببعثته –صلى الله

عليه وسلم–، وينتظرون النصر من الله على أعدائهم، ويتوعّدونهم إذا هزموهم إذا بعثه الله تعالى.

فلمّا حصل لهم ما انتظروه وتمنّوْه من بعثته، كفروا به، واشتروا حظوظ أنفسهم مِن جاهٍ ورياسة ومال، مقابل كفْرهم بهذا النبي الكريم –صلوات الله وسلامه عليه–، حسداً له في إنزال الله تعالى رسالته عليه واختياره له من غيرهم، ممّا أذهب الجاه عنهم ونقل الرياسة في غيرهم؛ فنالوا بفعلهم ذلك غضباً آخَر من الله تعالى عليهم مع غضبه السابق الذي لحِقَهم لأنواع كفْرهم مِن تحريف لكتبهم، وجحْد لما فيها من أحكام وبشارات بعيسى– عليه السلام– وكتابه الإنجيل، وبغير ذلك...

وقد توعّدهم الله على ذلك بالعذاب المُذلّ الذي هو في غاية الإذلال، المُعَدُّ لأمثالهم من الكفرة، لاستكبارهم عن قبول الحق .وقد كانوا إذا قال لهم النبي –صلى الله عليه وسلم– والمؤمنون" :آمنوا بهذا القرآن المنزَل من عند الله!"، تظاهروا بأنهم إنما أُمروا بالإيمان بالتوراة وما أُنزل على يهود خاصة، وأما غير ذلك ممّا أُنزل على غيرهم –وهو: القرآن المُنزل على العرب –فإنهم يكفرون به ولا يؤمنون به، مع أنه حق مذكور في كتبهم التي يزعمون إيمانهم بها، تُصدِّقه نصوصهم، وتدعو إليه. ثم أمر الله تعالى نبيه – صلى الله عليه وسلم– أن يحاجّهم بما يُفحمهم، ويثبت كذبهم في إيمانهم بما أنزل عليهم، حيث قتلوا أنبياءهم الذين أرسلهم الله إليهم؛ ولو كانوا صادقين في دعواهم لما قتلوهم، بل لأكرموهم ورفعوهم .

ومن ذلك أيضاً :ما تحقق من بعثة موسى –عليه السلام– إليهم، ومجيئه لهم بالآيات البينات والدلائل الواضحات على بعثته من الله، ودعوته إلى إفراده سبحانه بالعبادة، فإذا بهم يتّخذون عجلاً مِن الذهب يعبدونه من دون الله، مِن بعْد ما تركهم موسى ذاهباً لميقات ربه، ظلماً وعدواناً.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ

بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩٣﴾

﴿ قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾

﴿ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾

يذكر تعالى بني إسرائيل، ويعيّرهم بتكرار ذكْر أخْذ الميثاق عليهم عند الطور، حيث رفعه فوقهم وأمرهم بأخذ أحكام التوراة وتعاليمها بقوة وحزم ويسمعوا أوامر ربهم سماع قبول وانقياد، فكان موقفهم وحالهم أنهم سمعوا بآذانهم وعصوْا، فلم ينقادوا لأوامر الله تعالى، وتغلغل الشرك في قلوبهم، حيث عبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري .

فأمر الله تعالى نبيه أن يتهكّم بهم وبهذا الإيمان الذي يدّعونه؛ فإن التوراة التي زعموا أنهم يؤمنون بها ليس فيها عبادة العجاجيل، والحقيقة أنهم ليسوا مؤمنين .

ثم أمر الله تعالى نبيه –صلى الله عليه وسلم– أن يباهلهم ويتحدّاهم في دعواهم الكاذبة أنّ الله تعالى اختصهم بنعيم الآخرة، وأنه لن يدخل أحد غيرهم الجنة، أن يتمنّوا –ممثّلين في علمائهم– على الله، بين يديه– صلى الله عليه وسلم–: أن يقبضهم الله إليه إن كانوا

صادقين في تلك الدعاوى، فمَن كان مآله الجنة فهي خير له من الدنيا وما فيها .وأخبر الله تعالى أنهم لن يفعلوا ذلك أبداً، فلن يتمنّوا الموت بسبب ما قدّموه من أعمال فاسدة، وتحريف لدين الله، وإنكار لنبوّة محمد –صلى الله عليه وسلم–؛ ولكن الله يعلم ظلمهم، وسوف يجازيهم به عاجلاً أو آجلاً. ولعلْمهم بأن هذه مباهلة منه– صلى الله عليه وسلم– وتحدٍّ لهم، وهم يعلمون علْم اليقين صدْقه وصحة نبوّته، نكلوا عن ذلك؛ لأنهم لو تمنّوا الموت لماتوا، ولن يروا إلاّ مقاعدهم من النار .

ثم أخبر سبحانه عنهم: أنهم لا يوجد في الناس بمختلف طوائفهم أحرص منهم على هذه الحياة الفانية، ولو كانت أي حياة، لأنهم لا حظ لهم في الآخرة؛ بل هم أشدّ حرصاً على الحياة من المشركين من المجوس وغيرهم الذين لا يؤمنون ببعث ولا جزاء، والذين يتمنّى الواحد منهم أن يعيش في هذه الدنيا ألْف سنة أو أكثر. ولن ينفعه ذلك في الآخرة ولو بأن يزاح إزاحة قليلة عن النار وعذابها، لأنه لا يزيد ببقائه في هذه الحياة إلاّ كفراً واستكباراً، والله بصير بهذه الأعمال التي يعملونها، وسيعاقبهم عليها.

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٠ ﴾

يأمر تعالى رسوله –صلى الله عليه وسلم– أن يردّ على يهود في موقفهم معه، عندما سألوه عن صاحبه من الملائكة الذي يأتيه بالوحي، فأخبرهم أنه جبريل –عليه السلام–، فزعموا أنه عدوّهم لأنه ينزل بالعذاب، أمره الله تعالى أن يقول لهم إن جبريل –عليه السلام– لا يأتي بشيء من قِبَل نفسه، وإنما ينزل بالوحي الكريم من الله تعالى، فيحفظه النبي –صلى الله عليه وسلم– في قلبه ويعيه كما أداه جبريل –عليه السلام– بأمر الله تعالى، وبتصديق ما سبقه من الكتب السماوية الأخرى، ليكون هداية للمؤمنين وبشارة لهم بالأجر الجزيل يوم القيامة. ثم يخبر تعالى أنّ من كان عدواً لأولياء الله تعالى من الملائكة أو الرسل الكرام منهم أو من البشر، وخاصة جبريل –عليه السلام– الذي يزعم اليهود أنه عدو لهم، وميكائيل –عليه السلام– الذي يزعمون أنه سِلم لهم، فهو كافر بالله تعالى، والله عدو لهؤلاء الكافرين وأمثالهم. ثم يذكر تعالى –رداً على زعْم ابن صُوريا الفِطيَوني وقوله لرسول الله –صلى الله عليه وسلم–: يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بيّنة، فنتبعك–، أنه قد أنزل إلى النبي– صلى الله عليه وسلم– آيات بيّنات ودلائل واضحات على صدْقه، ولا يكفر بها إلاّ المبالغون في الخروج على أمر الله، الذين بلغوا الدرجة العالية في الفسوق؛ وهم اليهود أمثاله –عليهم لعنة الله المتتابعة–. كما نعى الله عليهم– رداً على مالك بن الضَيِّف وأمثاله، حيث قالوا: والله ما عهد الله إلينا في محمد ولا أخذ علينا ميثاقاً– أن ذلك ليس بغريب عليهم؛ فهم قد اشتُهروا بنقض العهود والمواثيق، وكلما عاهدوا عهداً مع الله أو مع أنبيائه أو مع الناس، نقض هذا العهد جلُّهم، لأنهم لا يؤمنون حقيقة، ودعواهم الإيمان كاذبة.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

يُخبر تعالى عن طرف من مخازي اليهود، وهو: موقفهم عندما جاءهم النبي –صلى الله عليه وسلم– بالبيان والبراهين الدالة على صدْقه، بما يوافق ما لديهم في كتابهم من بشارات به وغيرها، فنبذوا كتابهم وراء ظهورهم، وأهملوا العمل به كأنهم لا يعلمون أن فيه تصديق هذا النبي والأمر باتباعه. واستعاضوا عن ذلك باتّباع ما افترتْه الشياطين من السحر في كتب سليمان التي أخرجتها بعد موته من تحت كرسيه، وادّعت عليه أنه كان

يعمل بها، وبها كان ملكه، فرماه من رماه بالكفر. فبرَّأه الله تعالى منه، وبيّن أنه حاشاه أن يكفر، وإنما كفر هؤلاء الشياطين الذين علّموا الناس هذا السحر .

كما اتّبعوا ما أنزل الله من أنواع السحر على الملَكين اللّذين قبلا الابتلاء من الله بوضع شهوات بني آدم فيهما وإنزالهما إلى الأرض، فما كان منهما إلاّ أن وقعا في المعصية، وافتتنا بالمرأة التي مسخها الله كوكباً، وهي :الزهرة، كما في القصة المشهورة؛ فكان عقابهما أنهما يعذَّبان في بابل مُنَكَّسة رؤوسهما. وجُعلا فتنة للناس، فمن أراد أن يتعلّم أنواعاً من السحر أتاهما فعلماه إياها، ولا يعلِّمان أحداً يأتيهما إلاّ بعد أن يُحذِّراه ويُخبراه أنهما جُعلا فتنة وبلاء، وأن تعلّمه هذا السحر منهما يؤدّي إلى كفره وخروج الإيمان منه. فمَن قبِل بذلك تعلّم منهما ما يمكنه أن يُفرّق به بين الرجل وامرأته، كما فعل هؤلاء اليهود مع النبي –صلى الله عليه وسلم– حيث أخذوه عن أهله بما سحره به لبيد بن الأعصم اليهودي.

ثم بيّن تعالى أنه لا يتمكّن الساحر من إيقاع الضرر بالمسحور إلاّ بإذن الله. فقد يخلق الله من الأسباب ما يحول بينه وبين تحقيق الضرر بالمسحور .

وهؤلاء الذين يتعلّمون السحر إنما هم في الحقيقة يتعلمون ما يضرهم ضرراً محضا بضياع آخرتهم، فإنهم قد علموا يقيناً أن من اشترى هذا السحر إنما يشتريه ببذل إيمانه، فليس له في الآخرة أي نصيب؛ فبئس هذا البيع الذي باعوا به أنفسهم، لو كانوا يعلمون حقيقة ما ارتكبوا وعظم قبحه وسوء مآله.

ولو أنهم آمنوا برسول الله تعالى، وما أنزل إليه، واتقوا ما يغضب الله من التكذيب والسحر واتباع الشياطين وغير ذلك، لكان الثواب الذي هو من عند الله هو الخير لهم لو كانوا يعلمون حقيقة ذلك .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤ ﴾

﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥ ﴾

﴿ ۞ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦ ﴾

﴿ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧ ﴾

ينهى الله –سبحانه وتعالى– عباده المؤمنين أن يشابهوا اليهود في مخاطبة النبي –صلى الله عليه وسلم–، بكلمة تحتمل معنًى سيئاً أو سبة له –صلى الله عليه وسلم–، وإن كان ظاهرها ليس كذلك؛ وهي كلمة: "راعِنا" التي كانوا يقولونها له –صلى الله عليه وسلم– لكي يُمهلهم حتى يَعُوا عنه ما يأمرهم به وينهاهم عنه. وكان اليهود يقولونها ويريدون بها المعنى القبيح، فأمر الله عباده المؤمنين أن يقولوا له بدلاً منها كلمة: "انظرنا"، وهي بنفس المعنى إلاّ أنها لا تحتمل ما كانت تحتمله الكلمة الأولى. وأمرهم أن يسمعوا سماع وعْي، لا كسماع اليهود . وبيّن لهم أنّ هؤلاء الكافرين من اليهود وغيرهم، قد أعدّ لهم عذاباً موجعاً على كفرهم وعنادهم.

ثم بيّن سبحانه حقْد هؤلاء الكافرين من يهود ونصارى وسائر المشركين، وما تُكنّه صدورهم مِن بغض لأيّ خير يُنزله الله على هذه الأمة ويختصها به، مهما كان يسيراً؛ ولكن لله الحكمة البالغة، فهو يختص من يشاء برحمته لسابق علمه، وفضله عظيم واسع.

ثم ذكر سبحانه أنه ما يرفع حُكم أو تلاوةَ آية أو هما معاً، سواء أكان ذلك بإنسائها وهو رفعها من الصدور، أو بنَسْئها وهو تأخيرها، فإنه سبحانه يُنزل بدلاً من ذلك ما هو من مصلحة العباد في حينه، بدرجة مساوية لما رُفع، أو بما هو خير لهم منه. فهو سبحانه على كل شيء قدير، وله ملك السموات والأرض، يتصرّف فيهما كيف يشاء، ويعلم ما يصلحهما ويصلح عباده فيهما؛ فليس لهم من دونه مَن ينصرهم أو يُعينهم.

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣ ﴾

يُحذِّر تعالى أمّة رسوله محمد –عليه الصلاة والسلام– مِن أن يسلكوا مسلك يهود في تعنّتهم مع نبيّهم موسى –عليه السلام–، واعتراضهم عليه، وسؤالهم إيّاه على وجه الاقتراح والتعجيز والاعتراض، وكما فعل رافع بن حُرَيْملة ووهب بن زيد عندما قالا لرسول الله –صلى الله عليه وسلم–: يا محمد، ائتنا بكتاب تُنزله علينا من السماء نقرؤه، أو فجِّرْ لنا أنهاراً، نتّبعْك ونصدِّقك؛ وفي ذلك استبدال للإيمان بالكفر، ورِدَّة ظاهرة عن دين الله تعالى؛ وهو الضلال المبين عن سبيل الحق.

ثم يذكر تعالى عداوة أهل الكتاب، وما في قلوب كثيرين منهم مِن الرغبة والمحبة لرجوع المسلمين عن دِينهم إلى الكفر؛ وذلك لما في نفوسهم من الحسد للعرب، إذ خصّهم الله برسوله الخاتِم. ومن هؤلاء: حيي بن أخطب، وأبو ياسر بن أخطب، كانا من أشد اليهود حسداً، وكانا جاهديْن في رد الناس عن الإسلام ما استطاعا، وذلك مع ما عندهم من الحق الواضح البيّن في صدْقه –صلى الله عليه وسلم– وصدْق رسالته.

فأمر الله المؤمنين بالعفو والصفح عن هذه المواقف، حتى يأتيهم الأمر منه سبحانه بخلاف ذلك، وهو قتالهم وترك التجاوز عنهم. والله سبحانه وتعالى هو القدير على كل شيء.

وأمَرهم أن يلتزموا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ فهما أهم دعامتيْن في هذا الدِّين، وركناه بعد الشهادتيْن .وطمْأنهم سبحانه أنّ كل ما يفعلونه مِن خيرات، فهو ممّا يقدِّمونه لأنفسهم يوم القيامة، وسوف يجدونه عند لقائهم لربهم بجزائه الموفور؛ فالله تعالى بصير بكلّ ما يفعلونه، محيط بهم.

ثم ذكر سبحانه افتراءً مِن افتراءات أهل الكتاب، حيث ادّعت كل فرقة من يهود ونصارى: أنه لن يدخل أحد غيرها الجنة، فبيّن سبحانه: أنّ هذه أماني في نفوسهم، وليست من الحق في شيء، وليس عليها أي دليل يُثبتها. وتحدّاهم أن يأتوا ببرهان على ذلك إن كانوا قد صدقوا في تلك الدعوى. وردّ عليهم بأنّ الجنة إنما يدخلها مَن استوفى شرطيْن أساسين، وهما: الإخلاص التام لله، فلا يشرك بعبادته مع ربّه شيئاً، والإحسان في العمل، بأن يكون موافقاً لِما شرعه الله على لسان نبيه –صلى الله عليه وسلم–. فمَن فعَل ذلك، فله الأجر والجزاء عند الله، ولا يخاف ممّا يقدم عليه من أمْر آخرته، ولا يحزن على ما فاته مِن دُنياه.

ثم بيّن الله –جل وعلا– دليلاً من دلائل تناقضهم واختلافهم، حيث نفى كلّ فريق منهم عن الآخر أن يكون على شيء من الحق، وكفر بكتابه ورسوله، كما فعل يوسف بن حريملة والنصراني النجراني بين يدي رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، والكتاب الذي بين أيديهم المُنزل عليهم يشهد عليهم بكذبهم، ويلزمهم بالإيمان بموسى وعيسى معاً، وبالتوراة والإنجيل معاً؛ فشابهوا بفعلهم هذا أهل الجهل الذين لا علْم لديهم، في نفْيهم الرسالة وتكذيبهم الرسل. فالله سبحانه سوف يكون هو الحَكَم بينهم يوم القيامة في هذا الاختلاف، وسيجزي كلاً منهم بما يستحق مِن لعنةٍ وعذاب.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

يذكر –سبحانه وتعالى–: أنه لا أحد بَلغ في الظّلم مَنزلة الذي يجتهد ويَحرص على المَنع من إعمار مساجد الله تعالى بما أمر به فيها، من الذِّكر، والصلاة، والدعاء، ممّا يُحيلُها خَراباً لا فائدة منها، كما فَعلت قُريش حين مَنعت النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه من بيت الله الحرام، وكما فَعل مَنْ قَبلهم من العُتاة والمُجرمين، أمثال: بخْتنصَّر ومَن عاونه في تَخريب بيت المَقدس. وقد تَوعد الله تعالى مَن يَفعل ذلك بالذِّلة والمَهانة في الدنيا، مِن خَوف ورَهبة إذا دخلوا هذه البيوت بعد تَمكين الله للمؤمنين، مع ضَرب الجِزية عليهم صاغرين أذلاّء، مع ما يَنتظرهم من العَذاب العظيم يوم القيامة على كُفْرهم وشِركهم بالله.

وطمْأن الله سبحانه عبادَه المؤمنين، بأنه له الأرض بما فيها مشارقها ومغاربها، لا يَعزب عنه شيء، فصِلَتهم به لا يحول بينهم وبينها مكان؛ ففي أيّ مكان صلّوْا إليه ورغبوا إليه ووجّهوا وجوههم إليه، فهو معهم، قريب منهم، كلّ جهة يتوجّهون إليها قِبلة إليه. فسواء صلّوْا إلى الكعبة أو إلى غيرها، فهو واسع يَسعُهم بخيره وفضله، عليم بكل ما يفعلونه ويتقرّبون به إليه، وما ينفعهم من الفوائد والحِكم التي في أحكامه –سبحانه وتعالى–.

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ ﴾

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧ ﴾

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨ ﴾

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩ ﴾

﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠ ﴾

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١ ﴾

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ ﴾

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣ ﴾

يذكر تعالى أمراً عظيماً اتّفق عليه أهل الكُفر، وعلى وجْه الخُصوص اليهود والنصارى، حيث زعموا لله الولد؛ فقالت اليهود: عُزير ابن الله. وقالت النصارى: المَسيح ابن الله. وقال مشركو العرب: المَلائكة بنات الله. فنزَّه الله نَفسه عن هذه الفِرية، وبيَّن أنّ كلّ ما في هذه السموات والأرض من مَخلوقات خاضِعةٌ له مُطيعة مُعبَّدة؛ فهو الذي أنشأها كلّها وخَلَقها مِن عَدم عن غير مثال سابق، وخلْقه لأيّ منها لا يَزيد عن أمْره لها بأن تَكون فتَكون.

ثم ذكَر سبحانه كذلك موقفاً من تَكبُّر أهل العِناد والكُفر عامة، ومن اليهود خاصة، الذين فقدوا حقيقة العِلْم، حيث طَلبوا من النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يُكلِّمهم الله تعالى كما فَعَل رافع بن حُريملة، أو يأتيهم بآية وقتما يَحلو لهم، ففعلوا كما فعَل أسلافُهم؛ فقلوبهم مُتشابهة في الكُفر والعِناد. وقد بيَّن الله تعالى الآيات وأقام الدلائل والبراهين لِمَن أراد اليقين والمعرفة .ثم واسى تعالى نبيّه –صلى الله عليه وسلم– في عَدم إيمانهم به، بأنه ما أُرسِل إلاّ بشيراً يُبشِّر بما عند الله من خَير للمؤمنين، ونذيراً ليُنذر مَن كَفر وعَصى من عذاب الله المُهين، ولن يسأله الله تعالى عن هؤلاء الكافرين، فليس عليه هُداهم. كما أنه قد أعدّ لهم من العذاب ما يفوق الوَصف ويَعلو فَوق كلّ تَصوّر. وأيأسه الله تعالى أن يَرضى عنه هؤلاء الكُفار من اليهود والنصارى، حتى يتَّبع مِلّتهم، وأمَرَه أن يقول لهم: إن الهِدى هو الذي جاء به من عند الله، وانّ الهداية من الله ليست بِيَد أحد سواه .وحذَّره من مُجاراتهم في أهوائهم، ومجامَلتهم طَمعاً في إيمانهم بعد هذا العِلْم الحق، الذي أتاه من ربه؛ فإنّ مَن فَعل ذلك نَزع الله عنه الوَلاية والنُّصرة والتأييد .والحديث للنبي –صلى الله عليه وسلم– والأمّة مُرادة.

ثم بيَّن سبحانه أنّ أهل الكتاب الحقّ –من الأمم السابقة أصالة، ومِن أمّتنا تبعاً–، هم الذين يتَّبعون كتابهم، ويعْملون بما فيه، ويُقيمون حروفه وحُدوده، ولا يَكتمون منه شيئاً؛ فأولئك هُم المُؤمنون حقاً به، لا هؤلاء المُحرّفة الذين كَفروا به، فكانوا أصحاب الخَسارة في الآخرة.

ثم خَتم سبحانه فضائح اليهود ومخازِيهم– مع ما ذُكِر عن إخوانهم من بني إسرائيل النصارى– بالنُّصح لهم كما بدأ بذلك أوّلاً؛ فأمَرهم بأن يَذكروا نِعمته عليهم، وما

فضّلهم به على عالَمِ زمانهم، وأمَرهم بأن يتّقوا عَذابه يوم القيامة، حيث لا شَفيع لهم ولا نصير، ولا يُقبل منهم فِداء، ولا يَجزي عنهم أحد.

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾

يُذكِّر الله تعالى عِباده بمَنزلة إبراهيم –عليه السلام– الذي يَنتسب له أصحاب الديانات الثلاثة، ويَفخر مشركو مكة بأنهم أتباع إبراهيم –عليه السلام–، وما كان منه من استيفاء تام لأمور الدِّين، وتَطبيق كامل لها على الوجه المَطلوب، ومِن ذلك: خِصال الفِطرة، ومناسك الحج، والصَّبر على الابتلاءات المُتكرّرة، والثبات على الدِّين، فكافأه الله بأن جَعله إماماً للناس، يُقتدَى به ويُهتدى بفعاله. فسأل الله تعالى أن يَجعل ذلك أيضاً حاصِلاً في أبنائه، فأجابه لذلك مُستثنياً منهم الظالِمين، لأنهم لا يَستحقون أن يكونوا قُدوة لغيرهم، ولا يجوز أن يُولَّوْا أمْر الناس وليس لهم طاعة في ظُلمهم، ولا كَرامة.

﴿ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗاۖ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾

﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾

يمتنّ الله سبحانه على عباده بأن جعل لهم بيتَه الحرام تهفو إليه الأفئدة، يرجع إليه الناس عاماً بعد عام، وحكَم على عباده بأن يُبقوا هذا الحرم آمناً لكلّ مَن لاذ به ولجأ إليه، وأمَرهم سبحانه أن يتّخذوا مكان الحجَر الذي قام عليه إبراهيم –عليه السلام– وهو يبني الكعبة مكاناً للصلاة كما اتّخذه مَن سبقهم من الأمم.

ويذكر سبحانه أنه أمّر إبراهيم ومعه ابنه إسماعيل– عليهما السلام– بتطهير مكان البيت عندما أمرهما ببنائه، من كلّ ما لا يليق مِن أوثان ورجس ونجس، لكي يكون مجهزاً لاستقبال الذين أتَوْا إليه لِيعبدوا الله تعالى بأنواع العبادات فيه مِن طواف به ومكث فيه وجلوس وصلاة بركوعها وسجودها.

ثم بيّن سبحانه أن إبراهيم –عليه السلام– قد دعا لمكة بأن يجعلها الله بلداً آمناً، وأن يرزق أهلها من أنواع الثمار والخير والبركة، وخصّ دعوته بالمؤمنين بالله واليوم الآخر؛ فبيّن سبحانه أنه سيشمل بذلك أيضاً الكافر، ولكن سيمتّعه في هذه الدنيا متاعاً قليلاً، والعبرة في الآخرة، حيث يَصلى النار التي لا اختيار له سوى دخولها، وبئست النهاية والمآل.

﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾

يذكر –سبحانه وتعالى– مَشهداً من أعمال إبراهيم –عليه السلام– وهو: بناؤه الكعبة على قواعدها الأساسية التي دلّه الله عليها، ويرفع هذا البناء، ويُساعده إسماعيل –عليه السلام–، وهما يقولان حال بنائهما{ :رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّك أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}، فيطلبان من الله قبول هذا العمل بِجعْله خالصاً له، وابتغاء مرضاته؛ فهو السميع لِما يَدعوانه به، العليم بحقيقة عمَلِهما ونيّتهما فيه.

﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

يذكر الله سبحانه بقيّة دعاء إبراهيم وإسماعيل –عليهما السلام– وهما يبنيان الكعبة، حيث سألا الله أن يجعلهما مخلصيْن له إخلاصاً تاماً، مستديميْن على الخضوع له والانقياد، وأن يجعل مِن ذرِّيّتهما مَن يكون كذلك خاضعاً مُنقاداً مُخلصاً له سبحانه. وسألاه أيضاً أن يُعلِّمهما مناسك الحجّ لهذا البيت الكريم، وسألاه التوبة والمغفرة تواضعاً منهما له؛ فهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويرحمهم بمنّه وكرَمه.

ثم سألاه أن يبعث في ذرِّيَّتهما رسولاً منهم وهو محمد –صلى الله عليه وسلم–، يتلو عليهم آيات الله، ويُعلِّمهم أحكام كتابه، ويكون هدْيُه سُنَّة لهم، ويُرشدهم إلى ما يُزكّون به أنفسَهم ويُطهّرونها من الشرك والمعاصي؛ فهو سبحانه القادر على كلّ شيء، العزيز الذي لا يُمانَع، الحكيم في أفعاله وأقواله.

ثم أخبر تعالى أنه لا يترك أحدٌ دِينَ إبراهيم خليلِه، ويبتعد عنه ويزهد فيه، إلاّ إذا كان سفيه العقل، سقيم الفِكر، ظالماً لنفسه، مُضيعاً عليها حظّها وما ينفعها، لأن الله تعالى قد اختاره في هذه الدنيا فكرّمه، وهداه إلى طريق الحق، ورفَعه. وهو كذلك في الآخرة من الناجين المُفلحين .فأي مكسب أعظم من الجمْع بين خيريِ الدنيا والآخرة؟ وما ذلك إلاّ لاستجابته لأمْر الله، وخضوعه له التّامّ، وانقياده المطلق لأمر رب العالمين وفاطر السموات والأرضين.

ثم بيّن –جل وعلا– أنّ مِن حِرْص إبراهيم –عليه السلام– على الدعوة إلى الإسلام والانقياد لله، قد وصّى بنِيه جميعاً به. وكذا فعَل حفيدُه يعقوب –عليه السلام –حيث وصّى أبناءه بذلك، كما فعَل جدّه حيث بيّنَا جميعاً أنّ الله تعالى قد اختار الإسلام ديناً لعباده ولا يرضى سواه، وهو :الإخلاص في العبادة، والاستسلام والانقياد التّامّ لله والخضوع له، ونبْذ الشرْك. فعلى العاقل ألاّ يَلْقَى ربّه تعالى إلاّ عليه، ولا يكون ذلك إلاّ بالحرص على الاستدامة عليه، والتّمسّك به حتى تأتيَه المنيّة.

ثم بيّن سبحانه: أنّ ما أخبر به عن يعقوب إنّما هو مِن الغيْب الذي علّمه رسولَه –صلى الله عليه وسلم–، فلم يكُن أحدٌ حاضراً وشاهداً هذه الوصية المباركة والتوجيه العظيم، عندما داهَم الموتُ هذا النبيّ الجليل، وقال لبنيه مؤكِّداً لهم على الثبات على توحيد الله تعالى وعبادة ربّ الأرباب: ما تعبدون بعد وفاتي؟ فأخبروه أنهم ثابتون على دِينه ودِين آبائه: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحق، وهو: عبادة الله الواحد القهّار، لا يُشركون به شيئاً، والاستسلام والانقياد له.

ثم يقرِّر –جلّ وعلا– بعد أن حاجّ الكفّار مِن مُشركي مكة وأهل الكتاب، بهذه الأخبار عن نبي الله إبراهيم الذي ينتسبون إليه، وما حصل منهم مِن مخالفة لِدِينه ودِين ذرِّيّته، أنّ هؤلاء الأنبياء المكرَّمين ومَن تَبعَهم من الصالحين جماعة قد مضتْ أيّامُهم وأفْضَوْا إلى ربّهم، قد أحصى الله لهم ما اكتسبوا من العمل. وأمّا مَن أتى بَعْدهم فله أيضاً ما كسب، ولن يُسأل أحدٌ عن عمَل غيرِه، ولن يَنفع أحداً الانتسابُ إليهم؛ فمَن بَطَّأ به عملُه لم يُسرِعْ به نسبُه.

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ ﴾

﴿ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧ ﴾

﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨ ﴾

﴿ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ١٣٩ ﴾

﴿ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٠ ﴾

﴿ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤١ ﴾

يذكر تعالى إجرام اليهود والنصارى في دعوتهم الناس لدِينهم، وزعْم كلِّ طائفة منهم أنّ مَن اتّبع دِينها فقد اهتدى إلى الحق، كما قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتّبِعْنا يا محمد تَهْتَدِ". وقالت النصارى مثل ذلك. فأضرب سبحانه عن قولهم، وبيّن أنّ الدِّين الحقّ هو المائل عن دينهم وسائر الأديان الباطلة، وهو: دين إبراهيم –عليه السلام– الذي حقّق توحيد الله تعالى، وأخذ بشرائع الإسلام، ومنها: حجّ بيت الله الحرام، ولم يكن مِن المشركين بربِّهم مثْلَهم.

ثم أمر سبحانه المؤمنين بأن يُعلنوا إيمانهم بما أنزل الله تعالى على جميع رُسله مِن كُتب وبما آتاهم من معجزات، وعلى رأسهم خاتم أنبيائه: محمد– صلى الله عليه وسلم–، وأبو الأنبياء: إبراهيم –عليه السلام–، ونبيّ العرب: إسماعيل، ونبيّا أهل الكتاب: إسحق ويعقوب، وأجدادهم: الأسباط الاثنا عشر أبناء يعقوب –عليه السلام–، وكذلك النّبيّان الكريمان صاحبا الكتابيْن الجليليْن التوراة والإنجيل: موسى وعيسى –عليهما السلام .– وأمر سبحانه المؤمنين بأن يشهدوا بعدم تفريقهم بين هؤلاء الأنبياء في الإيمان ببعضهم دون الآخر، وأنهم قد أسلموا أمْرَهم وانقادوا وخضعوا في ذلك لله تعالى، لا كغيْرهم ممّن لم يفعل ذلك.

ثم أخبر سبحانه أنّهم إن حصل منهم الإيمان بهذا الدِّين القويم الذي آمن به المسلمون، فهنا يكونون قد اهتدَوْا إلى الحق فعْلاً، وإن لم يفعلوا ذلك فسيظلّ كلّ منهم في اختلاف وتنازع وعلى غير سبيل المؤمنين، والله –عز وجل– سوف يَكفي نبيه –صلى الله عليه وسلم– شرَّهم ومَكرهم، وسيجعل الدائرة عليهم بالقتل والسّبْي والإخراج والذِّلّة والصَّغار. فهو السميع الذي لا يخفى عليه كفْرهم ومَكْرهم، العليم بكل صغيرة وكبيرة.

وأمر سبحانه عباده المؤمنين أن يُخبروا أنّ دِينهم الذي اعتنقوه هو الدِّين الخالص النّقيّ، دِين الفطرة التي فطر الله عليها الناس، والتي لا يوجد أفضل منها ولا أحسن، وأنهم على ذلك الدِّين قائمون وبالله لا يشركون.

ثم أنكر تعالى على أهل الكتاب مُحاجّتهم المسلمين بالباطل ولَجاجهم، وأمَر عباده المؤمنين أن يقولوا لهم إنّ خالِقَهم ومُبدعَهم وربّ الجميع هو: الله سبحانه، وأنّ أعمال

كلٍّ منهم هو يُحصيها، وهو مُطّلع عليها، ويعلم ما كان منها على الحقّ وما كان على الباطل، وأنهم ما أرادوا بأعمالهم إلاّ وجْهَه، فلم يشركوا به شيئا كغيرهم.

ثم أدحض الله دعواهم الباطلة أنّ أنبياء الله إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وجُدودَهم الأسباط أبناء يعقوب كانوا على ديانة اليهودية أو النصرانية، وبَكّتَهم على ذلك، حيث إنهم قد علِموا أن الله قد شهِد أنّ دينهم الإسلام، وأنهم لم يكونوا على يهودية أو نصرانية، ولم تكن هاتان الدِّيانتان قد ظهَرتا بعْد. فهل هُم أعْلم بحالهم وبدينهم من الله؟

ثم بيّن –جل وعلا– مدى ظُلمهم في كتمانهم الشهادة لهم بذلك، مع معرفتهم إيّاه في كُتبهم، كما كتموا ما أُمِروا به من الشهادة بالرسالة لخاتم الأنبياء –عليه صلوات الله وسلامه–. وتوعّدهم سبحانه بأنه ليس غافلاً عن إجرامهم وما يفعلونه من دعوة للباطل، ثم أكّد عليهم أنّ هؤلاء الأنبياء والآباء الصالحين لن ينفعوهم بشيء، فقد مضَوْا بأعمالهم، وهم لهم عمَلُهم كذلك لا يُسأل أحدٌ عن أحَد، ولا ينتفع أحَدٌ بأحد، كما سبق أن بيّن لهم ذلك، وإنما أعاده تأكيداً وتوثيقاً.

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢ ﴾

يُخبر –سبحانه وتعالى– أنّ خِفاف العقول من الناس –وهم كلّ مَن لمْ يُعمِل عقْله ويَستخدمه الاستخدام الصحيح، ويعني بهم هنا: اليهودَ ومَن وافقَهم وتَبعهم من المشركين والمنافقين–، سوف يصدر منهم ما يُدلّل على هذا السّفه مِن قولهم للمؤمنين: ما الذي جعَلهم يُعرضون عن الجهة التي كانوا يتوجّهون إليها عند صلاتهم، وهي بيت المقدس؟ استنكاراً منهم لذلك، وطعناً في دِينهم. فردّ الله عليهم بأنّ جميع الجهات ومَن فيها مِن مشرق ومغرب وغيرهما، لله سبحانه، يأمُر من شاء بما شاء، ويهدي من شاء إلى الحقّ والصواب عَدلاً منه وفضلاً، لا معقِّب لحُكمه .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣ ﴾

يبيّن تعالى أنه قد تفضّل على هذه الأمّة بفضل عظيم، بعد تفضّله عليهم بالهداية إلى القِبلة والصراط المستقيم، وهو أنّه جعلَهم خيْر الأمم، وجعلهم عُدولاً يشهدون على الخلائق يوم القيامة، حيث تجحد الأمم رسالة أنبيائهم، فيشهدون لأنبياء الله بالبلاغ، ويشهد لهم النبي –صلى الله عليه وسلم– بالصِّدق والعدالة.

ثم بيّن سبحانه أنه ما شرع التوجّه لبيت المقدس أوّلاً إلاّ لِحِكمة بالغة، وهي: تمييز الخبيث مِن الطّيّب، وإظهار المؤمن الصادق الذي يتّبع رسوله –صلى الله عليه وسلم– ويُصدِّقه مِن الذي لم يستقرّ الإيمان في قلبه، فينصرف عن الحق ويتحوّل إلى ما كان عليه مِن كفْر مرّة أخرى.

وقد ذكر سبحانه أنّ هذه الفتنة –وهي تحويل القِبلة– كانت عظيمة ومؤثِّرة على الناس، خلا مَن هداهم الله من المؤمنين الصادقين الخلّص.

ثم طمْأن الله عباده المؤمنين عمّا دار بخلَدهم عن صلاتهم إلى القِبلة المنسوخة: هل قُبلتْ منهم وأُجِروا عليها أم لا؟ فأخبرهم سبحانه أنه –لاتّصافه بالرأفة بالناس والرحمة التّامّة– لا يُعقَل منه أن يُضيع عليهم صلاتهم وأجْرها، وأنه سوف يوفِّيهم ذلك كاملاً.

﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤ ﴾

﴿ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥ ﴾

يذكر تعالى أنّه كان –جلّ في عُلاه –مُطّلعاً عالِماً بتكرار نظَر النّبي –صلى الله عليه وسلم –إلى السماء، ينتظر الوحي من ربّه لِيحوّل قِبلتَه إلى بيته الحرام. وقد حصل ما كان ينتظر، فولاّه الله القِبلة التي تُرضيه وتَقَرّ بها عينُه، وأمَره أن يتوجّه حالَ صلاته إلى جهة المسجد الحرام، سواء أكان في المدينة، أمْ في أيّ مكان حلّ فيه هو وسائر المؤمنين.

ثم أخبر سبحانه أنّ أهل الكتاب يعلمون أنّ هذا الأمر حقّ من ربهم لعِلْمهم بصدق نبوّته– صلى الله عليه وسلم– وما لديْهم من أخبار عنه في كُتبهم، وأنه سبحانه لا يعزب عنه شيء ممّا يعملونه هم وغيرهم، وسيجازي كلاًّ بما يستحقّ.

ثم أيأس الله تعالى رسولَه مِن مُجادلة أهل الكتاب، وأخبره أنهم ليسوا في حاجة للبراهين والأدلّة لأنهم يجحدون عن علْم، فمهما أتاهم بآية فلن يستجيبوا له ويتّبعوا دِينه ويتوجّهوا لقِبلته، وسوف يبقى هو مخالفاً لهم أبداً؛ بل إنّ خلافهم فيما بينهم باقٍ أبداً، فلن يتّبع اليهود قِبلة النصارى ولا النصارى قِبلة اليهود، ولكلٍّ منهما دِينه.

وحذّر –جلّ وعلا– عباده المؤمنين بوعيد شديد وجّهه لقُدوتهم وأسوَتهم بأنّه لو اتّبع أهواء ومزاعم أهلِ الكتابيْن لأيّ غرض، كان بعد ما أنزل الله عليه من حقّ وعلْم، وبيّن له من الهدى، فسوف يكون في عداد هؤلاء الظالمين الذين أعدّ الله لهم عذابَه المُهين.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾

﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾

يذكر سبحانه أنّ أهل الكتاب يعرفون النبي –صلى الله عليه وسلم– بصِفته المذكورة في كُتبهم بأدقّ التفاصيل، حتّى إنّ معرفتهم به كمعرفتهم بأبنائهم اللّصيقِين بهم المُقرّبين منهم. فهم يعرفون أنّ التّوجّه لهذه القِبلة حقّ، ولكن مَن أنكر ذلك، وجادل فيه جمْع منهم، آثر إخفاء الحقّ وعدمَ تبْيينِه للناس، مع أنه الحق الثابت من ربّ العزّة والجلال؛ فلا مجال للشّكّ والارتياب فيه البتّة. ولكلّ أصحاب ملّة من الملَل قِبلة يُولّيهم إيّاها الله، وقد هدى الله هذه الأمّة لخير قِبلة، ولِذا دعا الله إلى المسارعة في الوصول إلى ما هو خير؛ ومن ذلك: التزام هذه القِبلة وعدم الحيْد عنها. وأخبر سبحانه أنه سوف يجمع الناس للحساب والفصْل بينهم فيما اختلفوا فيه، فهو على كل شيء قدير لا يعجزه شيء.

ثم أكّد سبحانه الأمْر بالتّوجّه للمسجد الحرام، مهما خرج المصلّي وتوجّه، وأكّد على أنه الحقّ الذي لا مِرية فيه، وسوف يَجزي الله عبادَه المطيعين له بما يستحقّون، فإنه لا يعزب عنه شيء مِن أفعالهم، وكذا سيجزي المخالِفين بما يستحقّون.

ثم أكّد سبحانه الأمر بالتّوجّه للبيت الحرام للمرّة الثالثة، وأمَر بذلك مهما كان المصلّي في أيّ مكان لا يتوجّه لسواه أبداً، حتى تنقطع حجّة الكافرين الباطلة من اليهود ومشركي مكة ومَن وافقهم، إلاّ مَن بقِي على غيّه ولجَجه؛ فهؤلاء أمَر سبحانه بعدم الالتفات لهم ولأباطيلهم، وأمَر بعدم هيْبتهم والخوف منهم، وبيّن سبحانه أنّه المستحقّ للهيْبة والخشية لا هُمْ.

كما بيّن سبحانه أنّ ما دلّهم عليه من القِبلة الحق، وغير ذلك من الخير، هو من إتمام نِعْمته عليهم، ومن تَمام هدايته لهم سبحانه، وطالَبَهم جلّ وعلا –أنه كما أكرمَهم بهذا الرسول الخاتم الذي جاءهم بالآيات البيّنات يتلوها عليهم غضّةً كما أُنزِلت عليه، ويهديهم لِمَا ينفعهم في دينهم ودنياهم، ويُزَكّي نفوسَهم ويُطهّرها، ويعلّمهم مِن علوم الكتاب والسُّنّة، وما لم يكن لديْهم به علْم من شتّى العلوم–، أن يَذكروه سبحانه فلا ينْسَوْه، وذلك بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وبالحرص على طاعته وامتثال أوامره، فيذكرهم سبحانه بالمغفرة والثناء الحَسن عليهم في الملإِ الأعلى، وأن يشكروه فلا يكفروه بألسنتهم وأفعالهم، والاعتراف بنِعمِه، والحمد له في السّرّاء والضراء، وترك معصيته بما أنعم به عليهم.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

يأمر سبحانه عباده المؤمنين أن يستعينوا بأمريْن عظيميْن وهما: الصبر والصلاة، على ما يتعرّضون له في هذه الحياة مِن أذىً من الكافرين، وبلاءات، وغير ذلك... فيصبرون على طاعة الله وما أمَرهم به، ويصبرون عن معصية الله وما نَهاهم عنه، ويصبرون على المصائب والمِحن، ويفزعون إلى الصلاة التي تربطهم بربهم سبحانه. وأخبرهم –جلّ وعلا– أنه معهم معيّة خاصة بهم، ينصرهم ويُعينهم، طالما اتّصفوا بهذا الخُلق العظيم وهو: الصبر.

ثم نَهاهم سبحانه أن يعتقدوا كاعتقاد غير المؤمنين فيمن يُبتلى بمصيبة القتل في الجهاد في سبيل الله، أنهم قد ماتوا وانقطعت عنهم الحياة بجميع صوَرها، وأمَرهم أن يعتقدوا فيهم حياة برزخية تليق بهم؛ فأرواحهم يجعلها الله عنده في جنات نعيمه، في حواصل طيْر خُضر تتمتّع بنعيم الجنة، وتسرح حيث شاءت، وتُرزق فيها رزقاً حسناً إلى يوم القيامة.

ثم أخبر الله عباده المؤمنين بأنّ هذه الدنيا دار بلاء وامتحان، وأنه سبحانه يمحّص عباده بذلك فيبتليهم بالمصائب، كشعورهم أحياناً بالخوف وفقدان الأمن، وقلّة الطعام والجوع، وفقْدهم شيء من مالهم، أو فقدهم بعض أحبابهم، أو ما قد يصيبهم مِن قحْط ونقص في الثمار، وذلك ليظهر المؤمن الصادق الذي يقابل ذلك بالصبر، فيستحقّ البشارة من الله حيث بيّن سبحانه أنّ هذا المؤمن الذي تصيبه المصيبة فلا يجزع، وإنما يصبر عند الصدمة الأولى ويسترجع، فيقول{ :إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، فيسلّم الأمرَ لله وحده، له عند الله تعالى مقابل ذلك: الصلوات، وهي :الخيرات المتتابعة منه سبحانه، من غفران للذنوب، والثناء العطر، والثواب الجزيل، والرحمة به في مصابه، وإبداله خيراً ممّا فقد، وزيادة على ذلك: الشهادة له بأنه هو المستحِقّ للوصف بأنه المهتدي إلى الحقّ والطريق المستقيم.

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨ ﴾

يخبر تعالى أنه قد شرع لعباده السعي بين الصفا والمروة وأن ذلك من مناسك الحج والعمرة وأعمالهما التي جعلها الله تعالى علامات عليهما فلا وجه لأن يتحرج أحد من الطواف بهما ولا يلحق الطائف بهما أي إثم فإن طواف أهل الجاهلية بهما ووجود إساف ونائلة عليهما قبل الإسلام لا يؤثر في مشروعية الطواف.

كما بين سبحانه أن كل من فعل خيرا وتطوع به ومن ذلك الطواف بينهما في حج تطوع أو عمرة تطوع فإن الله سبحانه يشكر له ذلك ويثيبه عليه ويعلم منه صدقه ونيته والقدر الذي يستحقه من الثواب.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ ﴾

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠ ﴾

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ ﴾

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢ ﴾

﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣ ﴾

يخبر سبحانه وتعالى عن جزاء الذين يخفون ويسترون ما أنزله الله تعالى من دلائل واضحات وهدايات ظاهرات إلى الدين الحق والرسول الحق بعد أن أظهرها الله تعالى ووضحها أكمل توضيح فيما انزل من كتب على رسله أنهم مطرودون من رحمته نائلون سخطه وعقابه مستحقون لدعاء الخلائق عليهم من إنس وجن وملائكة بل وبهائم وهوام لأنهم أفسدوا الأرض بصنيعهم ومنعوها الخير بفعلهم.

ثم استثنى سبحانه من تاب منهم ورجع عن كتمان الحق وبين للناس ما أخفاه عنهم وستره وأصلح ما أفسد من قبل فإن هذا يتوب الله عليه ويتجاوز عنه ويغفر له ويعيده إلى حظيرته ويرفع عنه سخطه ولعنته فهو التواب الذي يقبل التوبة عن عباده الرحيم بهم.

ثم أكد سبحانه شمول حكم اللعن والطرد والإبعاد من رحمته وإحاطته بمن مات على الكفر ولم يرجع عنه في الدنيا وأن الدعاء عليه متحقق من الملائكة ومن الناس جميعا يوم القيامة وسوف يبقى في ذلك خالدا لا ينفك عنه عذابه ولا يمهل ليعتذر أو يخفف عنه منه شيء.

ويقرر الله سبحانه تفرده باستحقاق العبادة والخوف والرهبة والرجاء والرغبة فلا معبود في هذا الكون يستحق العبادة غيره وهو الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء الرحيم الذي سبقت رحمته غضبه وأفاضها على عباده المؤمنين.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

يذكر سبحانه دلائل واضحات على استحقاقه لأن يفرد بالعبادة، ومن ذلك :

-إيجاده السموات بعجائبها والأرضين بغرائبها بعد أن كانت عدما وكذا تغاير الليل والنهار وتعاقبهما وما يترتب على ذلك من منافع عظيمة.

-وكذلك الآية العظمى في تمكينه سبحانه السفن بأنواعها المختلفة صغيرة وكبيرة من الجريان فوق مياه البحار محملة موقرة تحمل الناس وتحمل أمتعتهم وعليها يصطادون ويقتاتون وسائر ذلك من المنافع.

-وكذا الأمطار التي يرزق الله بها العباد فينزلها عليهم من فوقهم فيحيي بها الأرض الجدباء العطشى التي لا حياة فيها من نبات وحيوان فإذا بها تهتز بها الحياة بأشكالها المختلفة.

-ثم الرياح التي غاير الله سبحانه بينها فجعلها مختلفة الجهات مختلفة الحالات مختلفة المنافع.

-وأيضا هذا السحاب الذي جعله الله طائعا مذللا بين السماء والأرض لا يختفي لأعلى ولا يسقط لأسفل يحمل مياه الأمطار بهذه الكميات الهائلة ومع ذلك يسوقه الهواء بقدرة الله تعالى حيث يشاء الله.

فهذه كلها آيات ودلائل باهرات لأصحاب العقول على الخالق الذي خلقها وعلى ربوبيته واستحقاقه للألوهية لارب سواه ولا إله غيره.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾

يخبر سبحانه وتعالى عن فريق المشركين الذين اتخذوا من دون الله جل وعلا الشركاء والأنداد من الأصنام وغيرها وقد أحبوها وعظموها كما يعظمون الله أو كما يجب عليهم أن يعظموا ربهم ويحبوه.

ثم بين سبحانه أن عباده المؤمنين هم الذين أحبوه حقيقة ورسخت محبته في قلوبهم فلا يشركون به غيره.

وأردف ذلك سبحانه بالوعيد لهؤلاء الظلمة لأنفسهم بالشرك والكفر فبين سبحانه أن عذابهم الذي يعذبون به في الآخرة لو رأوه بأعينهم أو رآه النبي- صلى الله عليه وسلم -أو أي أحد لعلم وتيقن وأقر بأن الله سبحانه هو المتفرد بالقوة والقاهر فوق عباده وأنه جل وعز شديد العذاب لا عذاب أشد من عذابه.

وذكر سبحانه أن في هذا الموقف العصيب يتبرأ المتبوعون ممن اتبعهم ويرى هؤلاء الأتباع عذاب الله وأنهم لم تنفعهم الوصائل والعلاقات والمودات التي كانت تربطهم بأولئك المتبوعين وهنا يتمنى هؤلاء الأتباع لو يعيدهم الله تعالى إلى الدنيا مرة أخرى ليتبرءوا ممن اتبعوهم وعبدوهم من دون الله ويفردوا ربهم بالعبادة كما تبرأ أولئك منهم في هذا الموقف

العصيب وما ذلك إلا لكي يشعرهم الله تعالى بالحسرة والندامة على ما فعلوا ولن يخرجوا من هذه النار ولن يرجعوا لهذه الدنيا أبدا ولو كانت لهم رجعة لعادوا لما نهوا عنه فإنهم كاذبون

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾

﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

يأمر الله تعالى عباده ممتنا عليهم بأن يأكلوا مما خلقه لهم في هذه الأرض الواسعة من الأصناف المتنوعة من الحلال الذي لم يحرمه عليهم مما تستطيبه النفوس وتستلذ به ولا تتضرر منه ولا تتأذى وألا يسيروا وراء وساوس الشيطان ونزغاته في تحريم ما لم يحرمه الله تعالى بأيمان غضب أو شبهات باطلة أو افتراءات كاذبة لأنه عدو لهم واضح ظاهر لا خفاء به لا يريد لهم خيرا بل يأمرهم ويحثهم ويزين لهم المعاصي بأنواعها المختلفة صغيرها

وكبيرها مما يسوؤهم في دنياهم وأخراهم وأعظم ذلك الكذب على الله والافتراء عليه بلا دليل ولا برهان.

ثم ذكر سبحانه حال بعض هؤلاء الذين حرموا ما أحل الله وتقولوا على الله ما لم يأذن به وهم اليهود ومن سلك سبيلهم حيث كان جوابهم عندما أمروا باتباع شريعة الله وما أنزل على نبيه- صلى الله عليه وسلم- التعلق بالتقليد المذموم لما وجدوا آباءهم عليه من الباطل فهم يتبعوهم على كل حال حتى ولو كانوا لا عقل لديهم يردعهم عن باطلهم ولا سبيل لهم يتبعونه يهديهم إلى الحق.

ثم بين تعالى أن حال هؤلاء الكفار الذين أعرضوا عن دعوة الحق كحال الراعي الذي ينادي على بهائمه حيث لا تعرف بهائمه معنى ما يقال لهم وإنما يسمعون صوتا فقط يناديهن من بعيد أو من قريب فهم في حقيقة الأمر كالذي فقد سمعه وقدرته على النطق والنظر فكأنهم لا عقول لهم يعون بها الحق من الباطل لفقدانهم حواسهم الأساسية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين لأنهم هم الذين ينتفعون بأوامره بأن يأكلوا وينتفعوا بما رزقهم مما أحل لهم منه واستطابته نفوسهم وأمرهم بشكره والثناء عليه لجزيل نعمه عليهم لأن عبادتهم إياه وخضوعهم له واعترافهم بربوبيته وألوهيته يستلزم منهم ذلك.

ثم بين سبحانه ما حرمه عليهم من الأطعمة المستخبثة وهي كل ما مات دون ذكاة شرعية ولم يرد في الشرع استثناؤه وكذلك الدم والمراد المسفوح من كل حيوان وكذا الخنزير بصفة عامة سواء ذكي أم لم يذكى وسواء لحمه أو شحمه أو عظمه أو جلده وأيضا كل ما ذبح لغير الله وقصد به التقرب لغيره سبحانه أو رفع الصوت عند ذبحه باسم غيره كما كان يفعل المشركون من الذبح للأنصاب والجن وغير ذلك.

ومن رحمته سبحانه وسعة مغفرته استثنى من هذا التحريم ومن لحوق الإثم بمن يفعل ذلك المضطر الذي ألجأه الجوع إلى أكل شيء من هذه المحرمات شريطة ألا يكون ذلك برغبة منه في أكل الميتة أو يتجاوز حد دفع الضرر عنه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ﴾

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾

يذكر سبحانه جرم كفار أهل الكتاب الذين يكتمون ما أنزل الله من حق في وصف نبيه –صلى الله عليه وسلم– والأمر باتباعه لكي يبقى لهم متاع الدنيا من جاه ومال وبين أن ما يدخل بطونهم من جراء هذه الهدايا والرشاوى إنما هو في المآل نار سوف يصلونها يوم

القيامة وسوف يحرمون من كلامه سبحانه يوم القيامة ومن ثنائه وتطهيره مما يخص به غيرهم من المؤمنين ويكون لهم عوضا عنه العذاب الأليم الموجع.

ثم بين سبحانه أنهم بفعلهم هذا قد اشتروا في دنياهم طريق الضلال والزيغ بما هو لديهم من الهدى والعلم الواضح وبالتالي اشتروا عذاب الله في الآخرة بما كان محققا لهم من مغفرة ورحمة لو أدوا ما أمر به الله تعالى، فما أعجب حال هؤلاء وجلدهم في مخالفة أوامر الله على علم وبصيرة بما ينتظرهم من جراء ذلك من عذاب النار الفظيع .

وذلك العذاب كله بسبب أنه سبحانه بين الحق ووضحه في كتبه المنزلة ولكن هؤلاء الكفرة الذين خالفوا هذا الكتاب وتنازعوا الأوصاف الباطلة له في جانب والحق في جانب آخر بعيد عنهم.

﴿ ۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

يبين الله سبحانه لعباده ما هو العمل الذي يرضيه ويجب عليهم الانشغال بتحصيله وأنه ليس ادعاء أنه التوجه إلى جهة معينة كقبلة كما يزعم اليهود والنصارى من توجههم إلى المشرق والمغرب أو كما أنكروا على المسلمين في تغيير القبلة في الصلاة بل البر والعمل المرضي لله تعالى هو الإيمان والتصديق الكامل الشامل للعمل بالله سبحانه بإفراده بالربوبية والإلوهية ونعته بصفات الكمال التي وصف بها نفسه وباليوم الآخر وهو يوم

المعاد على ما جاء من أخبار صادقة عنه وبالكتب المنزلة كلها وبجميع النبيين وعلى رأسهم خاتمهم محمد –صلى الله عليه وسلم– وهذه جلها إيمانيات يتبعها الأعمال الصالحة ومنها التصدق بالمال مع ما جبلت عليه النفوس من حب له ذوي الحاجات من الأقرباء أولا ثم اليتامى الصغار الذين فقدوا آباءهم ثم سائر المساكين الذين لا يجدون ما يكفيهم فيحتاجون لغيرهم وأيضا ابن السبيل وهو المسافر المنقطع عن أهله ووطنه ويحتاج ما يبلغه غايته وكذلك من جاء سائلا وإن كان ظاهره الغنى فالله أعلم بحاجته وأخيرا معاونة العبيد والإماء في تحرير رقابهم عن طريق المكاتبة وشراء الأنفس وفكاك الأسارى.

ولا يكفى هذا وإنما لابد من أداء حق الله تعالى وأعظم ذلك ركنا الإسلام الصلاة والزكاة فلابد من إقامة الصلاة على الوجه المطلوب شرعا وإيتاء الزكاة طيبة بها النفس.

كما أن من فعل ذلك كله لابد أن يكون قد اتصف بالوفاء بالعهود سواء بينه وبين ربه أو بينه وبين الخلق، وتحلى بالصبر في مواطن الشدة حيث يبتليه الله سبحانه بالفقر والبؤس ويبتليه بالمرض والأسقام ويبتليه بالحروب والقتال فيجده صابرا محتسبا.

هؤلاء الذين جمعوا هذه الصفات هم الذين صدقوا في دعواهم الإيمان وطلب رضا الله وهم فعلا الذين تجنبوا عذاب الله وغضبه ونقمته.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ ﴾

يذكر الله تعالى أن شرع لعباده المؤمنين على وجه الإلزام أن يساوى بين القاتل وقتيله في العمد بقتل القاتل فإذا كان المقتول حرا فيقتل قاتله ولا يزاد على ذلك فيقتل به جماعة مثلا وإذا كان عبدا فيقتل قاتله ولا يزاد على ذلك فيقتل حر مثلا وإذا كان امرأة فيقتل قاتلتها إن كانت امرأة ولا يزاد على ذلك فيقتل رجل مثلا كما كان يفعل بعض القبائل في الجاهلية من أهل الكتاب أو غيرهم.

ثم ذكر سبحانه أن القاتل إن تجاوز عنه أولياء المقتول وقبلوا بالعفو عنه وعدم قتله ورضوا بالدية فالمشروع في هذه الحال أن يطالب الأولياء بالدية دون تعنيف أو استعجال له مع عسره وأن يقوم هو بأدائها دون مماطلة أو إنقاص وهذا التشريع من الله خاص بهذه الأمة خفف عنها به ورحمها دون ما سبقها من أمة اليهود والنصارى حيث لم يكن في شريعتهم قبول الديات.

ثم توعد الله جل وعلا من اعتدى على القاتل بعد أخذه منه الدية وقبوله بالعفو بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة فالقتل في الدنيا والنار في الآخرة.

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

يبين الله سبحانه لعباده الخير العميم في تشريعه القصاص فهو في الحقيقة سبب في حفظ المهج وبقاء حياة أناس لولاه لما عاشوا لأن من هم بالقتل يتذكر القصاص فيرعوي وينزجر عن القتل فيحيا من كان عازما على قتله ويحيا هو أيضا حيث يسلم من الانتقام بل ويحيا أفراد كثيرون لأن القتل يولد البغضاء والرغبة في الثأر فربما تقاتلت أمتين بسبب واحد فيفنى منهم كثيرون.

وقد بين سبحانه أن الذي يعي ذلك ويفهمه هم أصحاب العقول والواعية النيرة ويكون ذلك رادعا لهم عن الوقوع في القتل وسائر المعاصى فيجتبون ما يغضب الله تعالى فيسلمون من نقمته وعذابه.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ ﴾

﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾

يبين الله تعالى أنه قد فرض وألزم عباده بأن يوص ويعهد من توقع قرب وفاته لمرض أو كبر سن أو نحو ذلك لمن بعده بجعل ماله يقسم حسب ما يعهد ويعطى منه الوالدان والأقربون وأن يكون ذلك بالمعروف دون شطط ولا إجحاف وظلم وجعل الله ذلك مما يجب على من يتقي عذابه ويخاف عقابه.

ثم حذر سبحانه من أن يقوم أحد الموصى لهم بتبديل أو تغيير شيء من هذه الوصية بعدما سمعها وعقلها من الميت وبين أن الإثم في ذلك سيقع على هذا المبدل المغير لا يلحق الميت منه أي شي فإنه سبحانه قد سمع وعلم بحقيقة ما أوصى به الميت وبحقيقة ما قام المبدل بتغييره.

أما إذا ظهر للموصى إليه أن الميت قد أخطأ في وصيته فحاف فيها أو تعمد الظلم أو حرمان بعض من يحق لهم الوصية فقام بإصلاح ذلك وتعديل هذا الحيف فإنه لا يدخل فيما تقدم من الوعيد وليس عليه أي إثم والله سبحانه غفور رحيم يغفر له ما قد يقع فيه من خطأ إذا اجتهد ويغفر للميت ما لم يقصده ويرحمه.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾

﴿ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾

يخاطب الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بأنه قد فرض عليهم الصيام وهو الامتناع عن الأكل والشرب والجماع من الفجر وحتى المغرب فإذا نام أحدهم امتنع من ذلك أيضا ولو قام قبل الفجر وذلك مثلما فرضه على الأمم السابقة من اليهود والنصارى وغيرهم ليكون سببا في اجتنابهم عذاب الله وعقابه وفي تربيتهم على تقوى الله سبحانه ومراقبته.

ثم بين سبحانه أن ذلك يتحقق بأن يصوموا أياما قليلة ذوات عدد معلوم وهي ثلاثة أيام من كل شهر على المقيم الصحيح وأما المريض والمسافر فيرخص له ألا يصومها في الشهر بعينه وإنما يصومها إذا صح أو قدم من سفره في أيام أخر بنفس العدد الذي أفطره من الأيام.

أما المطيق للصوم القادر عليه سواء بجهد ومشقة كالشيخ الهرم والمرأة العجوز والحامل والمرضع أم بغير جهد ومشقة إلا أنه لا يرغب في الصيام فإن أفطر ولم يصم فعليه أن يقدم بدلا من هذه العبادة وهو أن يطعم مسكينا عن كل يوم يفطره بوجبة تشبعه عادة ومن زاد على ذلك فأطعمه أكثر من وجبة أو أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم أو جمع بين الصوم والإطعام من باب زيادة الخير فهو زيادة في أجره وقربة منه إلى الله.

ثم بين سبحانه لهؤلاء أن الصوم خير لهم من الفطر والإطعام إن كانوا يعلمون ما فيه من فوائد عظيمة لهم في دنياهم وأخراهم.

﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥ ﴾

يبين الله تعالى لعباده فضيلة شهر رمضان وما تميز به على غيره من الشهور باختصاصه بإنزال القرآن فيه حيث أنزله الله جملة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ليلة الخامس والعشرين منه وأنزل منه إلى الأرض في تلك الليلة صدر سورة العلق فكان ذلك شرفا لهذا الشهر العظيم لما في القرآن من الهداية للخلق أجمعين يهديهم إلى الحق ومن الدلائل الواضحة التي بينت لهم الشريعة الغراء وما فيها من حلال وحرام وحدود وفرقت لهم بين الحق والباطل والخير والشر، فكان أن أمر الله سبحانه كل من أدرك من المخاطبين بالتكليف دخول هذا الشهر وعلم به أن يصومه واستثنى من هؤلاء من كان مريضا بصفة عامة أو كان متلبسا بالسفر لم يحط رحاله في بلد فلا يلزمه الصوم فإن أفطر فعليه أن يصوم أياما أخر بعد انصرام الشهر بعدد الأيام التي أفطرها بعذره الشرعي.

وقد شرع الله ذلك لأنه سبحانه إنما شرع الله لهذه الأمة ما كان فيه اليسر وعدم المشقة ورفع عنها الحرج والعسر.

كما انه سبحانه قد شرع ما تقدم لتكمل هذه الأمة عدة ما أمر الله بصيامه شهرا كاملا هو شهر رمضان ثلاثين يوما أو تسعا وعشرين وليكبروا الله سبحانه إذا أكملوا هذا الشهر الكريم بدخول شهر شوال حمدا له سبحانه على ما هداهم إليه من التشريع

الحكيم والعبادة العظيمة المترتب عليها الأجر الجزيل ولكي يكون صيامهم وفعلهم ما أمروا به دليل شكرهم لربهم واعترافهم بفضله ومنته عليهم.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

يخبر سبحانه وتعالى عباده بأنه قريب منهم محيط علمه بهم فيجيب على سؤال العباد لرسوله –صلى الله عليه وسلم– عن ربهم ومدى قربه منهم وكيف يكون دعاؤهم له جل وعلا فتولى الله سبحانه الجواب مباشرة بأنه قريب منهم يجيب من يدعوه إذا دعاه الدعاء المشروع المستكمل شروط القبول فعليهم أن يستجيبوا لأمره سبحانه لهم بالدعاء وبغيره وأن يوقنوا ويؤمنوا بإجابته لهم بواحدة من ثلاث إما يعجل لهم ما سألوه في الدنيا وإما يدخره لهم في الآخرة وإما يدفع عنهم من البلاء فإذا فعلوا ذلك فقد هدوا ورشدوا وأصابوا خيري الدنيا والآخرة.

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ

فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

﴿ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

يمتن الله سبحانه على عباده المؤمنين بإباحته لهم جماع نسائهم في ليلة صيامهم بعد أن كان ذلك محظورا عليهم إذا ناموا وقد صلوا العشاء وعذرهم لأن المرأة ستر للرجل وهي ستر له تعفه ويعفها ويشتمل أحدهما الآخر ولا غنى لبعضهما عن بعض ولذا وقع بعضهم في المحظور ومقارفة الإثم ومخادعة النفس وقد علم الله ذلك منهم فتاب عليهم وغفر لهم ذلك ورخص لهم في جماع نسائهم وفي الأكل والشرب حتى يتأكدوا ويثبت لهم طلوع الفجر الصادق الذي يظهر على رؤوس الجبال ويتميز لهم بياض الصباح من سواد الليل فإذا كان كذلك فوجب عليهم أن يمسكوا حتى تغرب الشمس وهو وقت إدبار النهار وإقبال الليل فقد حل لهم الفطر آنذاك.

ولما كان جل الاعتكاف في شهر رمضان وتقدم إباحة الجماع في ليل رمضان ناسب أن يذكر سبحانه هنا حكما يتعلق بالاعتكاف وما سبق من رخصة وهو نهي المعتكفين الماكثين للعبادة في مساجد الله تعالى بنية عدم الخروج إلا للحاجة عن جماع نسائهم ولو في ليل رمضان الذي سبق الترخيص فيه .

ثم بين سبحانه أن ما سبق من أحكام فهي حدود وحواجز شرعها الله وفرق بها بين الحلال والحرام فيجب على العباد ألا يتجاوزوها وأن يبتعدوا عن مخالفتها وكما بين الله تعالى هنا الأحكام لعباده فهو كذلك يبن جميع شرائعه لأجل أن يتجنب المؤمنون ما يغضبه ويسخطه عليهم.

ثم عطف سبحانه على ما سبق من أحكام نهيا آخر وهو النهي عن أكل أي نوع من أموال الناس بأي أسلوب كان عن طريق الباطل ومن ذلك رفع المطالبة بها للحاكم ليحكم بشيء منها بأيمان كاذبة أو دعاوى باطلة وشهادات زور أو أي طريق آثم وهم يعلمون أنهم مبطلون في دعاواهم آثمون في إثباتهم.

﴿ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٨٩﴾

يذكر سبحانه وتعالى أن السؤال وقع من المسلمين للنبي –صلى الله عليه وسلم– عن سبب وجود الأهلة فأعلمهم الله تعالى بفائدة ذلك وهي أنه سبحانه جعلها ليضبطوا بها مواقيتهم في أمورهم المختلفة وبالأخص وقت حجهم.
ثم أنكر عليهم سبحانه عملا كانوا قد ابتدعوه في حجهم وهو أن غير الحمس وهم قريش وما ولدت كانوا إذا أحرموا لا يدخلون من الأبواب وإنما يتسورون البيوت تسورا فيأتونها من ظهورها ويزعمون أن ذلك من دين الله والتقرب إليه فذكر سبحانه أن البر والتقرب إلى الله إنما يكون بالتقوى والعمل بما شرع الله على هدى منه ابتغاء مرضاته ثم أمرهم بأن يأتوا البيوت من أبوابها سواء أكانوا محرمين أم غير محرمين وأن يتقوا الله سبحانه فإن في ذلك فلاحهم ونجاحهم في الدنيا والآخرة.

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾

يأمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بمقاتلة من يقاتلهم من المشركين مقاتلة حقيقية شريطة أن يكون ذلك منهم على جهة التقرب إليه وفي سبيل نصرة دينه وإعلاء كلمته لا رياء ولا سمعة ولا حمية وألا يتجاوزوا ما حده الله ورسوله –صلى الله عليه وسلم– في قتالهم هذا من عدم قتل الأطفال والنساء ومن سالمهم ومن لم تصله الدعوة أو أجابهم إلى الجزية ومن عدم جواز المثلة والغلول ونحو ذلك مما حرمه الله عليهم لأن ذلك اعتداء والله لا يحب المعتدين.

﴿ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾

أمر الله تعالى المؤمنين بقتل المشركين في أي مكان وجدوهم فيه –حسب الشرط المتقدم من عدم الاعتداء ونحوه، وباستثناء ما يأتي ذكره في الآية التالية فإن الآيات كلها مترابطة متصلة – ثم أمرهم بالسعي في إخراجهم سواء بالقتال أو بغيره من حيث أخرجوهم أي من مكة قصاصا وتطهيرا.

والذي تدل عليه الآثار أن المراد بالفتنة هنا هو الشرك، سواء المقيم عليه الكافر، أو المراد عليه المؤمن؛ فالشرك من حيث هو شرك، أشد من القتل

والحاصل أن الله تعالى عندما أمر عباده بمقاتلة من يقاتلهم ونبههم إلى عدم الاعتداء في هذا القتال، أمرهم بقتلهم في أي مكان وجدوهم فيه، سوى ما سوف يستثنيه، محرضا إياهم عليهم بذكر ما فعلوه من إخراجهم من مكة، آمرا لهم بالاقتصاص منهم في ذلك ولما كان ذلك الأمر بالقتال والقتل على هذا الوجه من التهييج والتحريض الشديد، مؤديا في مضمونه لحصول القتل المتكرر في كل من الفريقين المؤمن والكافر، بين سبحانه أن قتل المؤمن في سبيل دينه أهون ضررا من وقوعه في يد الكافر ليفتنه ويرده إلى الشرك والكفر، وأن قتل الكافر بيد المؤمن أهون ضررا من بقائه على كفره الذي يدفعه إلى الصد عن سبيل الله ومحاربة دين الله فقال} :وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ.{

ثم إن الله سبحانه وتعالى استثنى مكانا لا يقتل فيه المؤمنون الكافرين إن ثقفوهم فيه إلا بشرط واحد وهو إقدام الكافرين على مقاتلة المؤمنين في هذا المكان وهو عند بيته الحرام، وإنما كان هذا الاستثناء لعظم حرمة هذا المكان وكون الله سبحانه وتعالى جعل مكة مثابة للناس جميعهم وأمنا، وجعلها حرما آمنا لا يجوز فيه ما يجوز في غيره.

فجعل سبحانه غاية الكف عن قتال المشركين فيه هو بدؤهم بقتال المسلمين هناك فإذا فعلوا ذلك فالمسلمون مأمورون بقتلهم فيه فهذا هو الجزاء اللائق بهم لكفرهم وانتهاكهم حرمة المكان ابتداء.

ثم حث الله الكافرين على التوبة والرجوع عما هم فيه لأن الله سبحانه وتعالى مهما تقدم منهم من كفر وقتل لعباده المؤمنين سوف يغفر لهم ويرحمهم إن صدقوا في توبتهم وانتهوا عن كفرهم وذلك لاتصافه سبحانه بأنه غفور رحيم.

ثم بين الله جل وعلا الغاية التي لأجلها أمر الله سبحانه عباده المؤمنين بقتال الكفار وهي زوال الشرك أو ما يدعو إليه من رفعة الكفر وأهله، وانتشار الإسلام وارتفاع مناره بعلو كلمة التوحيد وهيمنتها على سائر الأديان ودينونة الخلق لشريعة ربهم جل وعلا، فإن حصلت الغاية فانتهى الكفار عن محاربة أهل الإسلام بإسلامهم أو بإذعانهم، فلا يقبل إيقاع شيء من الظلم على هؤلاء المنتهين من قبل المؤمنين إلا على سبيل المجازاة للظالم

منهم كمن أصر على الكفر ولم يذعن أو أقام على محاربة أهل الإسلام ولم يقلع، أو تبين عدم صدقه فيما ادعاه من الإسلام أو الإذعان.

﴿ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤ ﴾

دلت الآثار الثابتة في الباب على اتصال هذه الآية بالآيات قبلها وبينت أصل القضية بتمامها، فإن المسلمون لما صدهم المشركون عن العمرة عام الحديبية أصابهم من الغم والضيق مالا يخفى على أحد وهموا بالقتال وأحداث ذلك مشهورة، فطيب الله خاطرهم وبين لهم في هذه الآية أنه اقتص لهم منهم وصدقهم وعده في دخولهم المسجد الحرام متلبسين بإحرامهم في نفس الشهر الحرام الذي صدوا فيه، وبين لهم من الأحكام ما قد تدعو إليه الحاجة إذا حصل قتال كما كان على وشك الحصول في العام الفائت فكان من تلك الأحكام ما تقدم من الأمر بقتال من يقاتلهم والمنع من ابتدائهم القتال في الحرم حتى يبدءوا هم ثم الكف عنهم إن انتهوا.

ثم استكمل سبحانه أحكام القتال التي كان الموقف في حاجة إلى بيانها لتعلق الأمر بمكان حرام في شهر حرام بأناس محرمين فكانت خلاصة كل ما تقدم الإذن العام لهم بمقابلة المعتدي بمثل اعتدائه بغض النظر عن هذه الحرمات.

ثم أمرهم سبحانه بأن يتقوا مخالفة أوامره وانتهاك محارمه ليفوزوا بمعيته سبحانه الخاصة التي أعلمهم بأنها لعباده المتقين وتستلزم نصرتهم في الدنيا والآخرة.

﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥ ﴾

يمكن إجمال المعنى المستفاد من الآية في أن الله سبحانه تكميلا لما شرعه من أحكام في القتال، وعلما منه سبحانه بما جال في خواطر الأنصار –رضي الله عنه–م المتعلقة بأمر القتال وظنهم أنه يمكنهم القعود عن الجهاد بالنفس والمال فترة لإصلاح أموالهم وأحوال معايشهم؛ أمرهم سبحانه أمرا أكيدا بالاستمرار في بذل مالهم في إعلاء راية الجهاد في سبيله، لأن ترك النفقة وما يترتب عليها وهو القعود عن الجهاد في سبيل الله معصية من أكبر المعاصي التي تؤدي إلى الهلاك في الدنيا والآخرة، وأن عليهم أن يراقبوا الله سبحانه في أداء كل ما افترضه عليهم كأنهم يرونه فإن كانوا لا يرونه فإنه يراهم وهو مطلع على ما في قلوبهم وما في خواطرهم وهذه هي درجة الإحسان التي يحب الله سبحانه من اتصف بها.

﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ

ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

يأمر الله سبحانه وتعالى عباده بأداء الحج والعمرة خالصة له والإتيان بهما على وجه الكمال والتمام.

ويأمر تعالى نبيه –صلى الله عليه وسلم –وأصحابه في حال منعهم المشركون من عمرتهم أو حجهم وحالوا بينهم وبين إتمام نسكهم فعليهم أن يذبح كل منهم ما تيسر له من الأنعام وأقل ذلك شاة هدية تذبح داخل الحرم ومنعهم سبحانه من التحلل من نسكهم بحلق رءوسهم قبل أن يبلغ هديهم الحرم ويذبح فيه فإن هذا هو محل الهدي.

ويبين سبحانه وتعالى حكما لأمر طرأ واحتيج إليه في تلكم السفرة إلى العمرة وهو حكم من أصيب بأذى في رأسه أو مرض وهو مقيم على إحرامه فماذا يفعل وقد حيل بينه وبين الذهاب للبيت ليعتمر ويتحلل فكان الجواب أنه إذا ترخص في شيء من إحرامه بسبب هذا المرض أو الأذى مثملا حصل لكعب بن عجرة إذ آذاه هوام رأسه فحلق فإنه مخير بين أمور ثلاثة إما أن يصوم ثلاثة أيام وإما أن يطعم ستة مساكين ويجزئه في ذلك نصف صاع من تمر لكل مسكين وإما أن يذبح لله نسيكه ويجزئه في ذلك شاة.

ويقول الله سبحانه وتعالى لنبيه –صلى الله عليه وسلم .–وللمؤمنين ويوجههم أنهم إذا أمنوا مما هم فيه من الإحصار والخوف الذي يتمتع منهم بالعمرة إلى الحجة، أي: يؤدي العمرة ويمكث في مكة حلالا حتى يحج من هذا العام؛ فإنه عليه أن يقدم هديا ما تيسر من الهدي وأقل ذلك شاة كما ذكرنا فيما سبق من المحاضرات.

ويأمر سبحانه وتعالى من لم يجد هديا لتمتعه أن يصوم ثلاثة أيام في الحج وهو محرم به آخرها يوم عرفة لمن غلب على ظنه ألا يجد هديا وأما من لم يصم تربصا لوجود الهدي فلم يجده حتى انقضى يوم عرفة فله أن يصوم ثلاثة أيام التشريق وذلك إضافة إلى سبعة

أيام يصومها من لم يجد الهدي لتمتعه إذا رجع من حجه سواء أكان رجوعه إلى أهله كما هو الأغلب الأعم أم كان في طريقه إليهم أم إلى أي جهة أخرى.

وحان الآن أن نذكر المعنى الإجمالي لهذه الآية العظيمة بعد أن قضينا معها سبع محاضرات آخرها هذه المحاضرة والذي يبدو لي والله أعلم بعد النظر في الآثار المتعلقة بالتفسير بجانب روايات الغزوة مع مراعاة صحة الأسانيد وبيان أهل العلم لها أن النبي –صلى الله عليه وسلم– نزل هو وأصحابه الحديبية وجزء منها واقع في الحرم فكان –صلى الله عليه وسلم– يصلي في الجزء الواقع في الحرم حتى جاءت قريش وعقدت معه الهدنة كما سيأتي بيانه.

وفي أثناء إقامة النبي –صلى الله عليه وسلم– في الحديبية –وقريش غير مجيزة له الدخول للعمرة– أصاب كعب بن عجرة ما أصابه فرآه النبي –صلى الله عليه وسلم– ونزلت الآية يأمر الله سبحانه عباده فيها بأداء الحج والعمرة تقربا إليه على أكمل وجه وأتم فعل ثم بين لهم سبحانه أنهم إن منعهم عدوهم من أداء عمرتهم هذه التي أمروا بفعلها وإتمامها فعليهم إهداء ما استيسر من الهدي شاة فما فوقها لكل محرم أو اشتراك كل سبعة بدنة، ثم بين سبحانه وتعالى أنه لا يجوز لأحد منهم أن يحلق رأسه حتى يأتي أوان التحلل وهو أن يصل الهدي إلى محله وهو الكعبة –يعني: مكان ذبحه في الحرم– فمن كان منهم مريضا واحتاج إلى دواء محظور على المحرم أو حلق الرأس ولما يصل الهدي إلى محله كما هو الحال بالنسبة لكعب بن عجرة فعليه أن يذبح شاة أو يصوم ثلاثة أيام أو يطعم ستة مساكين أي ذلك وجد فعل وأقدم على المحظور الذي احتاج إليه في إحرامه.

ثم بين سبحانه لهم ماذا عليهم إذا زال عنهم ماهم فيه من خوف وأمنوا وأدوا العمرة وتسنى لهم البقاء للحج حيث قد اقترب موعده فأصبح من فعل ذلك منهم متمتعا بالعمرة إلى الحج حيث اعتمر في أشهر الحج وحج من عامه في سفرة واحدة فذكر سبحانه أن عليه ما استيسر من الهدي شاة فما فوقها لكل محرم أو اشتراك كل سبعة في بدنه فمن لم يجد هديا لتمتعه فعليه أن يصوم ثلاثة أيام في الحج وهو محرم له آخرها يوم عرفة لمن غلب على ظنه ألا يجد هديا وأما من لم يصم تربصا لوجود الهدي فلم يجده حتى انقضى يوم عرفة فله أن يصوم ثلاثة أيام التشريق، وذلك بالإضافة إلى سبعة أيام

يصومها من لم يجد هديا إذا رجع من حجه سواء كان رجوعه إلى أهله كما هو الأغلب الأعم أو كان في طريقه إليهم أو إلى أي جهة أخرى ثم بين سبحانه أن ذلك الحكم من التمتع بالعمرة إلى الحج وما ترتب عليه خاص بأهل الآفاق ممن ليس من أهل المسجد الحرام وهم أهل الحرم فقط. ثم أمرهم بتقواه والخوف من عقابه.

﴿ ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧ ﴾

يبين الله سبحانه في هذه الآية لعباده الوقت الذي يصح فيه فرضهم الحج بعد إذ أمرهم به، وهو شهر شوال وشهر ذي القعدة وعشر ذي الحجة إلى فجر العاشر، فمن أحرم بالحج بأن شرع في أول أعماله وهي التلبية في هذه الفترة الزمنية فعليه أن يجتنب الجماع والمعاصي كلها وملاحاة الناس، ويكثر من فعل الخيرات فإنه مهما فعل من خير يعلمه الله، وعليه ألا يهمل التزود كما كان يفعل بعض أهل اليمن ومن فعل فعلهم من ترك التزود ظنا منهم أن ذلك من التوكل على الله، ولا يفوته أن يجمع مع زاده الزاد الأخروي فإن خير زاد يتزود به هو تقوى الله سبحانه وتعالى، فإن التقوى أمر الله لعباده الذين يعقلون مايؤمرون به ويدركون أهميته.

﴿ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨ ﴾

﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩ ﴾

تتضمن الآيات توجيها آخر من التوجيهات الربانية في الحج حيث أشكل على بعض المسلمين قضية التجارة في الحج وهو من أساسات معاشهم، وقد سبق تلك الآية أمر الله لهم بالحج وبتجنب أمور فيه وبالتزود له فكان في ذلك مدعاة لذهابهم إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– يسألونه على تلكم المسألة الهامة المتعلقة بصحة حجهم وتمامه على وجهه الأكمل ولا يستبعد وقوع السؤال منهم وهم في انتظار السماح لدخولهم مكة، فكان جواب النبي– صلى الله عليه وسلم –هو نزول تلك الآيات ترفع عنهم الحرج في المتاجرة وتجمع لهم مع التجارة في الدنيا الأجر في الآخرة.

ثم يأمرهم الله تعالى بذكره عند المزدلفة ويرشدهم إلى الاهتمام به إذا رجعوا من عرفات إليها اعترافا بفضل الله عليهم إذ هداهم لما كانوا جاهلين به من أمر نسكهم وفيها تنبيه لهم بألا يشغلهم ماهم مقدمون عليه من التجارة في الأيام القادمة عن ذكر الله الذي هو أساس الحج والعبادات .

وأما حد عرفة فكما دلت الروايات لا تدخل فيه عرنة وكذا مزدلفة لا يدخل فيها وادي محسر.

وقد دلت الآثار على أن المخاطب بهذه الآية جميع الناس بحيث تشمل الحمس ومن دان دينهم وإن كانوا هم سبب الخطاب بها، والمراد أمر جميع الحجاج بالإفاضة من المكان الذي أفاض منه عامة الناس لا المكان الذي ابتدعته الحمس وأن يكثروا من الاستغفار في هذا المكان لما فيه من فضيلة عظيمة حيث يغفر الله لأهل الموقف كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة.

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

دلت الآثار على أن هذه الآية تضمنت مرحلة من مراحل الحج وهي المرحلة التالية للوقوف بجمع والصلاة بها وهي مرحلة إراقة الدماء وذبح المناسك واستبدال ما كان يفعله أهل الجاهلية من التفاخر بالآباء عند الجمرة وغيرها وطلب متاع الدنيا فقط لإنكارهم المعاد أثناء طوافهم للإفاضة وغيره، بذكر الله سبحانه بالتكبير يوم النحر وعلى الذبائح وعند رمي الجمرة وعند الطواف.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾

ذكرنا في المحاضرة السابقة أن الآثار دلت على أن الآية السابقة تضمنت مرحلة من مراحل الحج وهي المرحلة التالية للوقوف بجمع والصلاة بها وهي مرحلة إراقة الدماء وذبح المناسك واستبدال ما كان يفعله أهل الجاهلية من التفاخر بالآباء عند الجمرة وغيرها وطلب متاع الدنيا فقط لإنكارهم المعاد أثناء طوافهم للإفاضة وغيره، بذكر الله سبحانه بالتكبير يوم النحر وعلى الذبائح وعند رمي الجمرة وعند الطواف وأضافت هذه الآية حثهم على سؤال الله سبحانه خيري الدنيا والآخرة وحسنتهما أثناء ذلك وبين أن

لهم نصيبا وحظا من حجهم ومناسكهم وثوابا جزيلا على عملهم الذي كسبوه وأنه سبحانه محصيه لهم بأسرع حساب وأيسره.

﴿ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣﴾

دلت الآثار على أن الله سبحانه أمر عباده من الحجيج في هذه الآية بأن يذكروه في أيام التشريق وهي ثلاثة أيام بعد يوم النحر بالتكبير فيها وأقل ما يصدق عليه اسم التكبير فيها التكبير عند رمي الجمار ووعدهم سبحانه بأن يغفر ذنوب من اتقاه في حجه سواء بقي لذكره في اليوم الثالث منها أم تعجل فانصرف بعد ذكره له في اليوم الثاني عند رمي الجمار، مع اعتقاد أفضلية التأخير لأنه السنة، ثم يأمرهم تعالى بالاستدامة على تلك التقوى إلى أن يلقوه سبحانه.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤﴾

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥﴾

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُۥ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

دلت الروايات الواردة في الآيات بعد اجتناب الروايات الضعيفة على نزول الآيات في وقعة هذيل بالرجيع التي قتل فيها خبيب وأصحابه وهي من المواضع التي تحتاج إلى ربط بين السيرة والتفسير وتتطلب تحقيق الروايات الواردة في هذا الموضع من السيرة، وقد أخرج حديث تلك الوقعة البخاري في صحيحه وذكر عاصم بن عمر بن قتادة ارتباطها بجماعة أظهروا الإسلام وتعلقها بقصة بئر معونة وقد كانت قريبة منها ودل على ذلك دعاء النبي –صلى الله عليه وسلم– في القنوت على بني لحيان الذين قتلوا خبيبا ومن معه وعلى رعل وذكوان الذين قتلوا القراء وظهر منهم الكفر بعد إظهارهم للإسلام فليس ممتنعا والله أعلم أن تكون الآيات نازلة في الوقعتين لارتباطهما وتشابه الحال فيهما فالأولى على ما ذكرت رواية البخاري كانت سرية أرسلت عينا ولا مانع من كون سبب الإرسال تفقيه من أتى من عضل والقارة وادعوا إسلاما كما في مرسل عاصم بن عمر بن قتادة والثانية كانت كما في رواية للبخاري أيضا استمداد من رعل وذكوان وعصية على عدو لهم وهذه الرواية جمعت معهم بني لحيان وبينت رواية أخرى عند البخاري اشتراك الوقعتين في أمر إسلام هذه القبائل ظاهرا وطلبهم المدد على عدوهم ويدخل فيه التفقه أيضا كما بينته الروايات الأخرى وإرسال النبي –صلى الله عليه وسلم– لهم طلبهم ثم غدرهم بمن أرسلوا وتقتيلهم إياهم ويكون النبي –صلى الله عليه وسلم– أرسل خبيبا ومن معه إلى جهة بني لحيان وأرسل القراء إلى جهة رعل وذكوان وعصية . وعليه فمع التأمل يكون سبب النزول كما ذكر ابن عباس قصة خبيب وتلحق بها قصة

القراء للاشتراك في التوقيت والسبب وما إلى ذلك، فأما أمر المنافقين الذين ذكرهم الله في الآية بقوله} وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ {فكما ذكرت رواية ابن عباس جماعة من المنافقين سخروا من هؤلاء القوم الأخيار وتكلموا عليهم فأخبر الله بما في نفوسهم الخبيثة وطويتهم المنتنة التي لم تظهر بعد منهم وإنما ظهرت ممن شابههم تعريضا بالقبائل التي ادعت الإسلام ظاهرا وتشدقت بطلب التفقه والمفقهين فلما خرجوا من عند رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وقد أعجبه قولهم بدليل إجابته لطلبهم وإرساله خيرة أصحابه معهم سعوا في الأرض فسادا بتأليب قومهم على هؤلاء الأخيار حتى أبادوهم وأعملوا فيهم السيوف فتبين أنهم ألد الخصام، فكذا هؤلاء المنافقون الذين تكلموا بما تكلموا به لو سنحت لهم الفرصة لسعوا في الأرض فسادا بالقتل والتخريب المعبر عنه بإهلاك الزرع ونسل الإنسان والحيوان وإذا أمر أحدهم بأن يتقي الله عز وجل فيما يقول ويعمل تأخذه العزة بالإثم ولا يقبل هذا الوازع على الخير فالنتيجة الحتمية لهؤلاء جهنم التي مهدوها لأنفسهم وهي حسبهم لعنهم الله ولا مانع أن يكون من هؤلاء الأخنس بن شريق إن صح إسلامه ظاهرا فقد ذكر فيمن ألب على خبيب وأصحابه ولا مانع أن يكون منهم عبد الله بن أبي بن سلول فعدم انتهائه إذا أمر بالتقوى وتصلفه مشهور في السيرة وأما أمر المؤمنين الذين ذكرهم الله بقوله} وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ { فالمراد هؤلاء البررة الأتقياء الذين باعوا أنفسهم في سبيل الله وهانت عليهم أرواحهم ابتغاء مرضاته والفوز بجناته ومنهم عاصم وأصحابه السبعة الذين نزلوا لقتال مائة رام ولم يسلموا أنفسهم كمن يستقتل بين الصفوف ومنهم حرام بن ملحان الذي نضح الدم على وجهه وقال فزت ورب الكعبة وغيرهم رضي الله عنهم وقد حقت لهم الرأفة من الله والتي تجلت في مواقف من هاتين الوقعتين خلا ما يدخره لهم في الآخرة فقد قال عاصم: اللهم أخبر عنا نبيك وقال القراء: ربنا أخبر عنا إخواننا فأنزل الله فيهم من منسوخ التلاوة: بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا ومن ذلك حماية الله سبحانه جسد عاصم من المشركين بالدبر ورفع عامر بن فهيرة بين السماء والأرض ونحو ذلك مما ذكر في السيرة وليس ببعيد أيضا أن يكون ذلك القرآن منسوخ التلاوة كان مكانه هنا في تلك السورة بعد تلك الآيات، على نحو ماجاء في قوله تعالى} وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ

يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ {ثم نسخت تلاوة ما ذكر لتعم الآيات كل المنافقين وكل من يشري نفسه لله وهو المتقرر والله أعلم.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨﴾

﴿ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٠٩﴾

﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾

﴿ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةم بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢١١﴾

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢١٢﴾

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا

ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

أما الآية الأولى فلم يصح من الآثار ما يثبت نزولها في أهل الكتاب خاصة من آمن منهم أو لم يؤمن ولذا فالصواب أنها خطاب للذين آمنوا ويدخل فيهم من آمن من أهل الكتاب يأمرهم بالدخول في الإسلام دخولا مقيدا بصفة تجعل التعبير بالدخول لأجلها مستساغا وهو الدخول فيه بجميع شرائعه وفرائضه وحدوده وأعمال البر التي فيه لا يؤمن ببعضه ويكفر بالبعض الآخر، اتباعا لوساوس الشيطان وما يزينه من الخطايا ثم يحذرهم الله سبحانه وتعالى من الزلل والوقوع في حبائل الشيطان وضلالاته بعد هذا البيان الوارد في كتابه على لسان رسوله –صلى الله عليه وسلم– فإنه عزيز ذو انتقام حكيم في شرعه وأحكامه.

وأما الآية الثانية فالشيء الواضح الذي لا مرية فيه أن السلف الصالح كانوا يفهمون هذه الآيات ونحوها على ما تدل عليه اللغة من معنى إجمالي بغير خوض في تفصيل مدلول الكلمة الواحدة وبغير نفي للمعنى المتبادر مع اعتقاد تنزيه الله سبحانه عن مشابهة خلقه لدلالة الآيات والأحاديث على ذلك والمعنى الذي فهمه السلف من هذه الآية أن الله سبحانه يأتي يوم القيامة في طاقات من الغمام والذي يشبه السحاب، ويأتي في ذلك الموقف أيضا جموع هائلة من الملائكة ليفصل الرب جل وعلا بين عبادة في هذا الموقف الرهيب، ويقضي بين الخلائق في هذا اليوم العصيب وهكذا رجع كل أمر إليه وصار الحكم والفصل له وحده الملك الواحد القهار وهذا الموقف من الأهوال التي تنخلع لها القلوب فهدد الله به من تقدم ذكره من الزالين المنحرفين عن الطريق بعد هذه البينات الواضحات التي جاءتهم .

ثم إن الله سبحانه ذكر اليهود بما أنعم عليهم من الآيات البينات التي تدعوهم إلى الإيمان به سبحانه والخوف منه ومن غضبه وعقابه والتصديق برسله جميعا والإيمان بهم وعلى رأسهم النبي –صلى الله عليه وسلم–، ويحذرهم أن يبدلوا هذه النعمة فيكفروا بها فيستحقوا بذلك عقابه الشديد وعذابه الأليم ويحل بهم ما حل بأسلافهم حين بدلوا نعمة الله عليهم.

ثم تضمنت الآية التالية ما عليه الكفار من الانشغال بزينة الحياة الدنيا التي ألهتهم وشغلتهم عن كل شيء وهم مع ما هم فيه من هذا الانشغال بالفاني يسخرون من الذين آمنوا وسوف ينقلب الأمر عليهم يوم القيامة فيكونون فوقهم في القدر والمنزلة فهم في الجنة وأولئك في النار ولا يستويان وليس الأمر عند هذا الحد من التفاضل بل فضل الله واسع يرزقهم بما يشاء ويغدق عليهم عطاياه تعويضا لهم عما ترفعوا عنه من الانشغال بزينة الدنيا وزخارفها من غير حساب لما يعطيهم لأنه لا يخشى النفاذ وهذا هو الفضل الحقيقي

ثم تتحدث الآية الكريمة عن المرجع الأساس لاختلاف الناس في هذه الحياة في دينهم على الرغم من إنزال الله جل في علاه إليهم الكتب على ألسنة الأنبياء والرسل، فقد كان الناس على دين واحد أمة واحدة لا اختلاف بينهم في أمر دينهم منذ أنزل الله آدم عليه السلام إلى الأرض ولمدة عشرة قرون ثم نشأ فيهم الخلاف فضل بعضهم عن الجادة واستمر خلافهم هذا فأرسل الله لهم رسله وأنبياءه تترى وأنزل معهم كتبه لتفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه وتبين لهم الطريق الصحيح فكانت هذه الكتب هادية لعباد الله حتى اختلف أهل الكتاب في كتابهم نفسه الذي آتاهم الله إياه ورزقهم بينات العلم فيه فعكسوا الأمر بسبب حرصهم على الدنيا وطلبهم الرئاسة والرفعة على الناس وتكالبهم على الجاه فأذن الله سبحانه للذين آمنوا من أمة محمد –صلى الله عليه وسلم– في الاهتداء لكل ما اختلف فيه الذين أوتوا الكتاب فهداهم فيما أراد لهم الهداية فيه إلى يوم الجمعة الذي لم يأذن لهؤلاء في الاهتداء إليه وأضلهم عنه وهداهم إلى أقوم قبلة وإلى قول الحق في أنبيائه ورسله والله يهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨ ﴾

دلت الآثار على أن الصحابة رضي الله عنهم سألوا النبي –صلى الله عليه وسلم– عما ينفقون من أموالهم قربة إلى الله فبين لهم الله سبحانه لهم في تلك الآية مواضع النفقة أولا فبدأ بالأقرب فالأقرب والأولى في بذل النفقة له فالأولى وبين لهم أن كل ما يفعلون من خير هو به عليم ومجاز عليه .

ثم بين سبحانه أنه كتب على أهل هذه الملة القتال على ما يتضمنه من كراهية نفوسهم له إلا أنه على الرغم من هذه الكراهية فهو خير لهم، وفي قعودهم عنه مع أنه محبب إلى نفوسهم هذا القعود شر لهم من جوانب عدة يعلمها الذي فرض هذا القتال عليهم فهو يعلم وهم لا يعلمون.

ولاشك في نزول الآيتين بعد ذلك في سرية عبد الله بن جحش وقد دلت الآثار الواردة في ذلك أن عبد الله بن جحش وأصحابه ارتابوا فيما فعلوه مع ما يعلمونه من عظم القتال في الشهر الحرام وتعيير المشركين لهم بذلك وإشفاقهم ألا يؤجروا على سريتهم هذه بسبب قتلهم في الشهر الحرام فسألوا عن ذلك النبي –صلى الله عليه وسلم– فكانت الآيتان ردا على سؤالهم وتعريضا بالمشركين الذي استنكروا فعلهم فبين سبحانه أن قتالا في الشهر الحرام عنده كبير إثمه إلا أن ما يرتكبه المشركون أعظم عنده من هذا القتال المذكور فهم يصدون عن سبيل الله ويكفرون به ويصدون عن المسجد الحرام ويخرجون أهله المؤمنين منه وهذا كله أعظم عند الله من قتال في الشهر الحرام وأما ما حصل فيه من قتل ابن الحضرمي فالفتنة التي هم مقيمون عليها وهي الشرك والكفر والدعوة إليه أكبر إثما وذنبا من القتل وعليه فقتالهم وقتلهم في الشهر الحرام طالما هم مقيمون على ذلك ومستمرون في قتالكم ليحاولوا ردكم عن هذا الدين بكل ما يستطيعون وهم كذلك لا حرج فيه ومن استجاب لهم فارتد عن هذا الدين القويم أحبط الله عمله في الدنيا وإن يمت على الكفر فلا أجر له في الآخرة وهو من أصحاب النار

الخالدين فيها وأما أهل هذه السرية الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله فهم يرجون رحمة الله وسوف ينالونها إن شاء الله فالله غفور رحيم.

﴿ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩﴾

﴿ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٢٠﴾

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٢١﴾

يوجه الله سبحانه رسوله –صلى الله عليه وسلم– بأن يجيب من سألوه من الصحابة رضوان الله عليهم عن الخمر وهو كل ما خامر العقل وعن الميسر وهو القمار أي حكمهما بقوله: لهم فيهما إثم كبير مع ما فيهما من بعض المنافع الدنيوية التي ينشدها الناس من نشوة وربح عاجلين وأن هذا الإثم والضرر أعظم من تلك المنفعة.

كما وجهه أن يجيبهم في سؤالهم عما ينفقونه من أموالهم في سبيل الله أن يقول لهم إنه الفضل من تلك الأموال مما زاد عن حاجتهم وحاجة من يعولون وأنه سبحانه هكذا يبين لهم آياته ليتفكروا ويتأملوا المفاضلة بين الدنيا والآخرة ويقدموا الآخرة لما لها من فضل على متاع الدنيا الزائل.

كما وجهه أن يجيبهم في سؤالهم عن اليتامى وكيف يكون التعامل معهم بأن فصل أموالهم أفضل وآمن وإن كان خلط أموال اليتيم بمال وليه لا بأس به طالما كان المقصد الإصلاح فكلهم إخوة لبعض والله سبحانه مطلع على من كانت نيته بذلك الإصلاح أو الإفساد ولو شاء الله أن يضيق عليهم ويشدد لفعل فإنه سبحانه عزيز لا يمانع ولا يفعل شيئا إلا بحكمة وفيه مصلحة راجحة.

ثم نهى سبحانه عن نكاح المشركات جملة وتفصيلا حتى يدخلن في الإسلام وبين أن الأمة المؤمنة أفضل من الحرة المشركة ولو كان بها من الصفات ما يدعو للإعجاب بها كما نهى عن إنكاح المشركين جملة وتفصيلا حتى يدخلوا في الإسلام وبين أن العبد المؤمن أفضل من الحر المشرك ولو كان به من الصفات ما يدعو إلى الإعجاب به. وذلك لأن هؤلاء يدعون إلى النار وما يقود إليها من معاص وفتن والله سبحانه يدعو عباده للجنة وللحصول على مغفرته جل وعلا ويبين آياته للناس ويرشدهم كي يتذكروا ويعقلوا.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾

يوجه الله سبحانه وتعالى نبيه –صلى الله عليه وسلم– أن يجيب من سأله من أصحابه عن إتيان الرجل امرأته في محل الدم وقت حيضها بأن ذلك فيه أذى وضرر وأمرهم باجتناب وطء النساء في مكان الحيض وهو الفرج ونهى عن جماعهن فيه حتى ينقطع عنهن الدم فإذا انقطع الدم وغسلن فروجهن فمن شاء أتى امرأته حسب أمر الله وشرعه فإن الله يحب عباده الذين يكثرون التوبة مما وقعوا فيه من مخالفات في هذا الأمر وغيره ويحب المتطهرين عن الأذى والمعاصي.

ثم بين سبحانه أن النساء موضع الحرث بالنسبة لأزواجهن للمقصد العظيم من الجماع وهو طلب الولد وحفظ النسل ولا حرج في أن يأتي الرجل امرأته على أي كيفية شاء طالما كان في هذا المكان الذي يطلب منه الولد.

وأمرهم سبحانه أن يقدموا الأعمال الصالحة التي تنفعهم في أخراهم وأن يتقوا ما يغضب الله تعالى فهم سيلقونه فيحاسبهم على أعمالهم والبشارة للمؤمنين بالأجر الجزيل والثواب العظيم.

﴿ وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٤ ﴾

﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٢٥ ﴾

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٢٦ ﴾

﴿ وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٧ ﴾

﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٢٨ ﴾

يأمر الله سبحانه عباده المؤمنين بألا يجعلوا حلفهم بالله حاجزا يعترضهم عن فعل البر والخير والإصلاح بين الناس فهو سميع لما يقولون عليم بما في أنفسهم.

ثم يبين لهم أنه جل وعلا لا يؤاخذهم باللغو في أيمانهم وهو كل مالم تنعقد عليه قلوبهم في اليمين أو كان منهم على سبيل الخطأ أو النسيان فهو سبحانه واسع المغفرة يعفو ويصفح لحلمه العظيم.

ثم وجه سبحانه الذين يحلفون ألا يقربوا نساءهم غضبا منهم عليهن ألا يزيد ذلك عن أربعة أشهر فإذا مضت وعادوا إلى نسائهن وصفحوا فالله يغفر لهم ما سبق من تقصير وهو سبحانه الرحيم بهم وبنسائهم حيث شرع هذه التشريعات لهم.

وإن عزموا على الطلاق برفضهم الفيء وتلفظوا بالطلاق أو طلق عنهم الحاكم فإن الله سميع لطلاقهم وغيره مما يتكلمون به عليم بما في قلوبهم من عزم وغيره.

ثم أمر تعالى النساء المطلقات بأن ينتظرن ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار قبل أن يتزوجن مرة أخرى وحرم عليهن ألا يخبرن بما في أرحامهن من حيض وعدمه أو حمل وعدمه وبين أن إظهارهن ذلك علامة إيمانهن بالله واليوم الآخر وأن لأزواجهن الحق دون إذن من أحد في ردهن أثناء هذه العدة إلى ما كن عليه قبل الطلاق إن أرادوا الإصلاح والخير وأنه سبحانه جعل للنساء حقوقا فرضها على الأزواج مثل الذي عليهن من واجبات فرضها عليهن بما هو معروف في أحكام الشريعة وما لم يخالفها من أعراف مع الاحتفاظ

للرجال بما لهم عليهن من درجة التفضيل بالقوامة ووجوب الطاعة وغير ذلك والله عزيز لا يمانع حكيم فيما يشرع لعباده ما يصلحهم.

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـٔٗا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ ﴾

﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾

حصر الله سبحانه وتعالى الطلاق في مرتين يمكن أن يراجع الرجل امرأته بعدهما فإما أن يمسكها ويحسن عشرتها كما أمر سبحانه أو يطلقها دون إضرار بها في شيء ويحسن إليها ولا يمكن له مراجعتها بعد تلك المرة الثالثة.

ولا يجوز للرجل أن يأخذ من المرأة شيئا مما أمهرها به إلا إذا ظهر الخوف من التفريط فيما أمر به الله الزوجة من حقوق تجاه زوجها وبالتالي الزوج أيضا في مقابل ذلك فإذا حصل ذلك فللمرأة أن تفتدي نفسها من زوجها بالخلع فتعطيه ما أصدقها إياه ويحل له أخذ ذلك وقد أجاز الله لهما هذا الأمر وهذه هي حدوده سبحانه فلا يجوز تجاوزها ومن يتجاوز هذه الحدود فهو ظالم لنفسه .

وإذا طلق الرجل امرأته الطلقة الثالثة فإنه لا يستطيع مراجعتها ولا تحل له إلا إذا تزوجها رجل آخر عن رغبة وجامعها ثم بدا له فطلقها فهنا يجوز للزوج الأول أن يتزوج بها مرة أخرى إذا بدا لهما أن كلا منهما يقوم بما عليه تجاه الآخر وهذه هي حدود الله التي حدها وبينها لعباده حتى يعلموها ولا يخالفوا ما جاء فيها.

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ ﴾

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾

﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ

وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٢٣٣﴾

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٣٤﴾

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿٢٣٥﴾

يأمر الله تعالى عباده بعدم الإضرار بالمطلقات إذا قاربت عدتهن على الانتهاء فإما أن يرجعوهن إلى عصمتهم ويعاشرهن حسب شرعه سبحانه أو يتركوهن يبن منهم حسب شرعه سبحانه أيضا ولا يجوز لهم أن يمسكوهن لإلحاق الضرر بهن والتعدي عليهن فإن من فعل ذلك فهو ظالم لنفسه مقصر في حقها.

ونهاهم سبحانه عن التهاون بأوامره والعبث بحدوده وشرائعه وحثهم على تذكر نعمه عليهم وآلائه ومن أعظمها ما أنزل عليهم من آيات بينات وهدي قويم وتشريعات حكيمة في الكتاب والسنة لوعظهم وإرشادهم وأمرهم أن يتجنبوا عقابه فهو عليم بكل أفعالهم وما يضمرون في سرائرهم.

ثم أمر سبحانه الأولياء بعدم منع من تحت ولايتهم من النساء المطلقات ممن انتهت عدتهن من الرجوع لأزواجهم السابقين طالما كان ذلك عن تراض بينهم حسب شرع الله وخوفهم سبحانه بجعله ذلك دليلا على إيمانهم به وبالجزاء يوم القيامة وبين لهم أن هذا أفضل وأطهر وأكرم لهم فهو سبحانه الذي يعلم حقائق الأمور لا هم.

ثم أمر جل وعلا الوالدات ومنهن المطلقات بإرضاع أولادهن عامين كاملين فهذه هي الرضاعة التامة الكاملة ويجب على الوالد أن ينفق على مطلقته فيطعمها ويكسوها حسب شرع الله تعالى دون أن يلزم بأكثر مما في وسعه.

ونهى سبحانه كلا من الوالدين عن إضرار أحدهما بالآخر عن طريق الأولاد وألزم سبحانه وارث الوالد بما ألزم به الوالد من نفقة وكسوة وعدم إضرار.

ثم بين الله تعالى أن الوالدين إن تفاهما واتفقا وتراضيا على فطام الولد قبل الحولين فليس عليهما إثم في ذلك بخلاف لو انفرد أحدهما بقرار الفصام وأنه إذا أراد الآباء أن يبحثوا عمن ترضع غير الأم لسبب ما فلا حرج عليهم في ذلك إذا أعطوا للوالدة حقوقها كاملة نظير فترة رضاعها السابقة حسب ما شرع الله. ثم أمرهم باتقاء غضبه وعقابه لأنه سبحانه بصير بهم وبما يعملون من عمل.

ثم يأمر جل في علاه من توفي زوجها من النساء أن تنتظر مدة أربعة أشهر وعشرة أيام لا يحل لها أن تتزوج من رجل آخر وعليها أن تحد هذه المدة على زوجها المتوفى فإذا انتهت المدة فلا إثم عليها ولا على أوليائها فيما تفعله في نفسها من تجمل وتزين ونحوه للخطاب وغيرهم حسب ما شرع الله.

ثم بين الله تعالى أنه لا إثم على من عرض برغبته في خطبة امرأة أثناء عدتها أو من عزم في نفسه على الزواج منها فإن الله تعالى يعلم ضعف عباده وأن من رغب في ذلك فسوف يذكره ولكن لا يحل الإسرار بشيء من تصريح بالنكاح أو فعل له لهؤلاء النسوة ولكن ما

سبق بيانه فقط من التعريض وأما العزم على إبرام النكاح فلا يكون إلا بعد انتهاء العدة ثم خوفهم سبحانه بأنه يعلم ما يسرون في أنفسهم فليحذروا غضبه وعقابه ولا ييأسوا أيضا من رحمته وحلمه جل وعلا.

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٣٦﴾

﴿ وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٧﴾

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ ﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ٢٣٩﴾

يبين الله سبحانه أنه لا إثم يلحق من طلق امرأته قبل أن يجامعها أو يقرر لها صداقا ولكن عليه أن يطيب خاطرها بمنحها ما تيسر له متعة منه لها كل حسب قدرته فمن وسع الله عليه يختلف في قدر ذلك عمن ضيق الله عليه رزقه ويكون ذلك بما تعارف الناس عليه

بما لا يتعارض مع شرع الله تعالى وأن ذلك حق وواجب على من أراد أن يكون من المحسنين

أما إن حصل الطلاق قبل المسيس وهو الجماع ولكن بعد الاتفاق على مهر محدد فإنها تستحق نصف المهر إلا إن صدر منها عفو عن حقها فله ألا يعطيها من المهر شيئا وأما إذا صدر العفو من الزوج عن النصف الآخر فإنها تأخذ مهرها كاملا ومن عفا منهما فهو الأقرب إلى تقوى الله سبحانه وعليهما ألا يتجاهلا ما كان بينهما من معروف وإحسان فإن الله بصير بأعمالهم ومحاسبهم عليها.

ثم أمر سبحانه عباده بالاهتمام بالصلوات الخمس والمحافظة عليها بأوقاتها وشروطها وأركانها وخص من ذلك الصلاة الوسطى وهي صلاة العصر تأكيدا على فضلها وأهميتها وأمرهم بالسكوت في صلاتهم وترك ما كانوا عليه من الكلام فيها وأمرهم بالخشوع فيها والتدبر وطول القيام فإذا كان وقت الخوف أثناء القتال فلا حرج عليهم أن يصلوا وهم يتحركون على أرجلهم أو وهم ركوب على دوابهم يومئون إيماء فإذا ارتفع عنهم الخوف وأمنوا صلوا صلاتهم على أكمل وجه وذكروا الله فيها بطمأنينة شكرا له سبحانه كما أنعم عليهم بالهداية والعلم النافع.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ ﴾

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ ﴾

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾

﴿ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٤﴾ ﴾

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾

﴿ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾ ﴾

يبين سبحانه وتعالى أن النساء المتوفى عنهن أزواجهن لهن الحق في النفقة والسكنى مدة العدة وكانت حولا كاملا أي سنة لا تخرج من بيتها فإذا انتهت عدتهن فلا إثم على الأولياء فيما يفعلنه في أنفسهن من خروج من البيت أو من تزويج والله عزيز لا يمانع حكيم في كل ما يشرع ثم أمر سبحانه بالمتعة للمطلقات وجعل ذلك حسب المتعارف عليه بما لا يخالف الشرع وجعله حقا على كل من أردا أن يكون من المتقين لغضبه وعقابه سبحانه ثم ذكر سبحانه أنه بذلك قد بين لهم آياته ووضح لهم دينهم لعل عقولهم تستوعب ذلك ويعملون به.

ثم ذكر سبحانه قصة قوم ممن سبق خرجوا من ديارهم فرارا من الموت وخوفا منه فإذا بالموت يأتيهم من حيث لم يحتسبوا فيقبضهم الله تعالى جميعا ثم يحييهم بعد ذلك ليعلم خلقه أنه لا يغني حذر من قدر وأن الموت بيده والإحياء بيده ويدلل لهم بآية بينة على المعاد وهذا من فضل الله سبحانه على الناس حيث يجعل لهم من الآيات ما فيه العظة والعبرة ولكن أكثر الناس لا يقومون بشكر هذه النعم العظيمة.

ثم أمر جل وعلا عباده بالقتال في سبيله وابتغاء مرضاته ولتكون كلمته هي العليا وهو سبحانه سميع لما يقولون عليم بما يفعلون .

ثم أمرهم بالنفقة في سبيله حيث سيعوضهم منها أكثر مما بذلوه أضعافا مضاعفة فهو سبحانه المعطي المانع والقابض الباسط والكل راجع إليه فمجازيه بإحسانه إحسانا وبالسوء سوءا.

ثم ذكر سبحانه قصة أقوام من أشراف بني إسرائيل من بعد نبي الله موسى –عليه السلام– فذكر أنهم طلبوا من نبي لهم أن يجعل عليهم ملكا يقاتلون تحت إمرته لإعلاء كلمة الله فحذرهم من أن يتراجعوا وينكلوا عن القتال إذا كتب الله ذلك عليهم فتعجبوا من ذلك وقالوا كيف لا نقاتل لإعلاء كلمة الله وقد أخرجنا أعداؤنا من ديارنا وقتلوا أبناءنا.

فذكر سبحانه أنه لما كتب عليهم القتال حصل ما أخبرهم به نبيهم وتولوا ونكلوا إلا القليل منهم والله يعلم من ظلم نفسه منهم فترك أمر الله تعالى.

ثم أخبر سبحانه بموقف آخر لهم حيث أخبرهم نبيهم أن الله أوحى إليه بأن يجعل عليهم

ملكا يقال له طالوت فإذا بهم يعترضون على ذلك ويقولون كيف يكون له الملك عليهم وهو ليس من بيت الملك فهم أحق منه بذلك كما أنه قليل المال فأخبرهم أن الله سبحانه اختاره وفضله عليهم ومنحه جسدا قويا عظيما وعلما واسعا وأن الله سبحانه يجعل ملكه فيمن يشاء فهو سبحانه الواسع العطاء العليم بما يصلح لخلقه.

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ ﴾

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ ﴾

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١ ﴾

﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٥٢ ﴾

﴿ ۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ٢٥٣ ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤ ﴾

يذكر سبحانه أن هذا النبي الذي أرسله الله لبني إسرائيل بعد موسى عليه السلام قال لهم إن علامة جعل طالوت عليهم ملكا أن يرد الله عليهم التابوت الذي سلب منه قبل ذلك بأن تأتي به الملائكة تحمله وبه يحصل لهم الطمأنينة أثناء قتالهم وفي داخله ما بقي من آثار لموسى وأخيه هارون عليهما السلام وأن في حصول ذلك لهم دلالة واضحة إن

كانوا يؤمنون فعلا.

ثم قص علينا سبحانه طرفا مما حصل بينهم وبين طالوت فهو عندما غادر هو ومن معه من الجنود أخبرهم أن الله سوف يختبرهم بنهر يمرون به في طريقهم فمن لم يصبر وشرب منه فليس من أتباع طالوت وأما من لم يشرب منه أو اغترف فقط منه غرفة بيده فهؤلاء هم أتباعه الذين سيستمرون معه فما كان منهم إلا أن شربوا منه إلا القليل من المؤمنين الذين صبروا وتجاوزوا مع طالوت النهر وكانت عدتهم ثلاثمائة وبضعة عشر عدة أصحاب بدر.

ولما رأوا قلة عددهم قالوا ليس لنا القدرة على مواجهة جالوت وجنوده بهذا العدد القليل فأنطق الله راسخي الإيمان منهم الذين يوقنون بلقاء الله تعالى فقالوا لهم إن العبرة ليست بالعدد وإنما بنصر الله فكثيرا ما نصر الله عددا قليلا على أعداد كثيرة بإذنه تعالى ومعيته سبحانه معية النصرة والتأييد لمن صبر من المؤمنين.

فتقدموا وظهروا لجالوت وجنوده ودعوا ربهم أن ينزل عليهم الصبر على ملاقاة هذا العدو وأن يثبت أقدامهم في هذه المعركة وأن ينصرهم على هؤلاء الكافرين فتم لهم ذلك بحمد الله وهزموهم بإذنه سبحانه وكان مقتل جالوت قائدهم على يد داود عليه السلام حيث كان من جنود طالوت وقد من الله عليه فرزقه الله الملك وآته العلم والنبوة.

ثم ذكر سبحانه أنه لولا ما جعله من صراع بين الحق والباطل وشرعه من قتلا وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر فيدفع بأهل الخير أهل الشر لانتشر الفساد في الأرض ولكنه سبحانه تفضل على خلقه بذلك فهو ذو الفضل والنعم.

ثم ذكر سبحانه أن هذه الآيات العظيمات التي أنزلت على النبي –صلى الله عليه وسلم– هي حق وصدق وهو من جموع المرسلين الذين أرسلهم الله تعالى لهداية الخلق.

وهؤلاء المرسلون يتفاوتون في منزلتهم عند الله وفيما منحهم الله فمنهم من كلمه ربه سبحانه كموسى عليه السلام كما رفع بعضهم في منزلة فوق البعض الآخر كما رأى النبي ––صلى الله عليه وسلم– ليلة المعراج ومنهم عيسى عليه السلام الذي ولدته مريم العذراء من غير أب آتاه الله الدلائل الواضحات وأيده بجبريل عليه السلام.

ثم ذكر سبحانه أنه لو شاء ما حصل النزاع والقتال بين الناس بعد إرسال الرسل إليهم

ولكنهم اختلفوا فآمن منهم من آمن وكفر منهم من كفر فكان لابد من حصول الصراع بين الفريقين لحكمة عنده سبحانه ولو شاء ما حصل ذلك ولكنه سبحانه فعال لما يريد لا معقب لحكمه.

ثم أمر جل وعلا عباده المؤمنين أن ينفقوا مما أنعم عليهم به من رزق في وجوه البر والخير والجهاد في سبيله قبل أن يأتيهم يوم القيامة حيث لا حسنات تباع هناك ولا يفتدي أحد نفسه بماله ولا ينفع أحدا صديقه وحبيبه ولا يقبل الله شفاعة قبل إذنه ورضاه عن المشفوع فيه. والويل للكافرين يومئذ فهم حقا الظالمون الذين ظلموا أنفسهم أعظم الظلم لشركهم بالله وكفرهم به.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥ ﴾

يصف الله سبحانه وتعالى نفسه بأنه جل وعلا هو الله المألوه المعبود الذي لا معبود بحق سواه الحي الذي لا يموت أبدا القائم على جميع المخلوقات فجميعها مفتقرة إليه ولا قوام لها بدون أمره الذي لا يغالبه الوسن والنعاس ولا ينام تقدس وتعالى عن ذلك كل ما في السموات والأرض ملك له وتحت سلطانه وقهره لا يجرؤ أحد أن يشفع لأحد عنده إلا من بعد أن يأذن الله تعالى له ويرضى عن المشفوع فيه وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل يحيط علمه سبحانه بجميع المخلوقات فيعلم ما كان منها وما يكون وما

لم يكن لو كان كيف يكون وليس لأحد أن يعلم شيئا من علمه سبحانه في نفسه أو في مخلوقاته ولو صغر ودق إلا إذا أذن هو سبحانه وشاء ذلك.

له سبحانه العرش العظيم الذي كرسيه وهو ما يكون موضعا للقدمين من العروش المعروفة قد فاق في سعته السموات والأرض فكيف بعرشه سبحانه، وهو جل في علاه لا يثقل عليه ولا يعجزه حفظ السموات والأرض وما فيهن فهو العلي الذي له العلو المطلق فوق كل شيء وقاهر كل شيء العظيم الذي تواضعت لعظمته جميع المخلوقات.

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾

﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾

يذكر سبحانه أنه لا يمكن إكراه أحد على الدين والإيمان الصحيح وأنه قد تبين الحق من الباطل فالذي يكفر بالشيطان وحزبه وما زين من معبودات باطلة المعبودة ويؤمن بالله سبحانه وحده فقد تمكن من الدين الصحيح الذي لا زيغ فيه وهو الإسلام والله سميع للأصوات عليم بالنيات.

وهو سبحانه ناصر ومعين للمؤمنين به يهديهم للحق وينير لهم طريقهم وينجيهم من ظلمات الكفر والجهل وأما الكافرون فنصيرهم ومعينهم الشيطان وحزبه يدلونهم على طريق الكفر والباطل ويضلونهم عن طريق الحق والنور فهم جميعا أهل النار سوف يمكثون فيها خالدين.

ثم ذكر سبحانه قصة إبراهيم –عليه السلام– مع الملك النمروذ الذي آتاه الله ملك قومه فاغتر به وحاج إبراهيم في الخالق سبحانه فقال له إبراهيم معرفا بربه أنه هو المحيي المميت فجادل النمروذ بالباطل وادعى أنه يحيي بعفوه عمن استحق القتل عنده وقتله من أراد فأعطاه إبراهيم حجة داحضة تبين كذبه فقال له إن رب العالمين هو الذي يأمر الشمس بالطلوع من الشرق فإن كان هو الرب فيأمرها بالطلوع من المغرب فأسكته الله تعالى وأدحضه فهو من الظالمين الذين لا يهديهم الله تعالى.

وذكر سبحانه قصة رجل مر على قرية من القرى وقد أصبحت خرابا وتهدمت أبنيتها وزروعها ولم تعد مأهولة مسكونة فتساءل كيف يحيي هذه الله مرة أخرى ويعيدها إلى ماكانت عليه فقبض الله روحه لمدة مائة عام ثم أحياه فتساءل في نفسه كم من المدة قضى فيما كان فيه فقال لعله لبث يوما أو بعض يوم فاعلمه الله أنه لبث مائة عام ومع ذلك بقي طعامه وشرابه سليما لم يفسد وأما الحمار الذي كان معه فقد أصبح عظاما بالية فجعل الله ذلك علامة للناس ودلالة على البعث بعدما علموا بقصة هذا الرجل وأراه الله كيف تتجمع عظام الحمار مرة أخرى وتعود كما كانت وتكسى لحما وتبث فيها الحياة فلما رأى ذلك بعينه لم يملك إلا أن شهد لله بأنه على كل شيء قدير وقد كان يعلم ذلك.

ثم قص جل وعلا قصة إبراهيم –عليه السلام– عندما أراد أن يرى كيفية إحياء الموات فسأل ربه ذلك فقال له الله وهو أعلم به : أأنت في شك من ذلك ولم تؤمن به فأجاب إبراهيم بإيمانه الصادق بذلك وعدم شكه وإنما أراد زيادة الإيمان والاطمئنان على منزلته عند الله تعالى وقربه منه فأمره سبحانه بأن يأخذ أربعة طيور مختلفة فيذبحهن ويقطعهن قطعا ثم يفرق أجزاءهن على الجبال ثم يناديهن فيجتمعن لديه أحياء كما كن وليعلم أن الله عزيز لا يمانه ولا يعجزه شيء حكيم فيما شرع وجعل من نظام لهذه الحياة.

ويضرب الله مثلا لعباده المؤمنين الذين ينفقون أموالهم في الجهاد خاصة وسائر وجوه البر أن ذلك مثل من استنبت حبة فخرج منها سبع سنابل فإذا في كل سنبلة مائة حبة فكانت الحسنة بسبعمائة ضعف وفضل الله واسع فالله يضاعف أكثر من ذلك لمن يشاء فهو واسع العطاء العليم بمن يستحق الزيادة والفضل.

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾

﴿ ۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ﴿٢٦٣﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥﴾

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧﴾

﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨﴾

﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ ﴾

﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾

يخبر الله سبحانه أن الذين ينفقون أموالهم في سبيله وابتغاء مرضاته ولا يعقبون نفقاتهم تمننا وتعييرا لمن أنفقوا عليه ولا يؤذنونه بفعل لجميلهم عليه فإن لهم الأجر كاملا عنده سبحانه ولا يخافون يوم القيامة ولا يصيبهم حزن على ما تركوا وراءهم.

ثم يخبر سبحانه أن القول الطيب والغفران والتسامح أفضل من الصدقة التي يتبعها الإيذاء للمتصدق عليه والله سبحانه غني عن هذه الصدقة حليم يحلم على عباده ويصبر عليهم فلا يعجل لهم بالعقوبة.

ثم نهى جل وعلا عباده أن يحبطوا صدقاتهم ويضيعوا أجرها بحصول التمنن منهم والإيذاء لمن تصدقوا عليه فهؤلاء مثل الذي ينفق ماله لأجل مراءاة الناس وطلب الثناء منهم عليه بذلك لا لوجهه سبحانه وابتغاء مرضاته ولا إيمانا منه بالله وموعوده يوم القيامة فمثل هذا الرجل مثل الصخر الأملس الشديد الذي كان عليه تراب يغطيه فأتى عليه مطر شديد فأزال ما عليه من التراب فأصبح صلدا لامعا . فهم لا يجدون عند الله شيئا مما كسبوه حيث حبط عملهم كله والله سبحانه لا يهدي من كفر به إلى ما ينفعهم ويفيدهم.

وأما الذين ينفقون أموالهم احتسابا وابتغاء لوجهه سبحانه فمثلهم كمثل حديثة غناء على أرض مرتفعة قد جاءها مطر غزير أو رذاذ خفيف فكانت ثمارها يانعة مضاعفة والله

سبحانه يبصر أعمالهم ويجازيهم بها.

ثم حذر سبحانه من يحبط عمله بالكفر أو الرياء أو المن والأذى أن يشابه رجلا كانت له حديقة مثمرة من أنواع الشجر بها نخيل وأعناب وتجري خلالها الأنهار وبها من كل الثمرات قد زرعها في شبيبته وقد ادركه كبر السن بعد أن أصبح له من الذرية أبناء ضعاف يحتاجون إليه فإذا بحديقته يصيبها ريح شديدة بها نار أحرقت حديقته وذهبت بماله أحوج ما يكون إليه هو وذريته الضعاف فلا هو قادر على أن يزدرعها مرة أخرى ولا هو قد انتفع بما زرعه في السابق . وهكذا يبين الله الدلائل والبراهين لكي نتأملها ونتفكر فيها.

ثم يأمر سبحانه عباده المؤمنين بأن يختاروا الطيب مما رزقهم من المكاسب وما أخرج لهم من نبات الأرض فينفقوا منه ولا يقصدوا الرديء السيئ فيتصدقوا به ولو كان ذلك موجها إليهم هم لما أخذوه ورضوا به إلا على مضض وعدم رضا وغض نظر . وليعلموا أن الله غني عن هذه الصدقات حميد شاكر لمن أنفق من الطيب.

وبين الله سبحانه أن الشيطان هو الذي يسول لهم ذلك فيخوفهم بالفقر ويهددهم بحصوله لهم إذا أنفقوا أموالهم في سبيل الله ويأمرهم بالمعاصي الكبيرة والله سبحانه يعد عباده المنفقين بمغفرة ذنوبهم والأجور والفضائل الجزيلة فهو سبحانه واسع العطاء العليم بنوايا عباده ومقاصدهم.

ومن منن الله على عباده أن يرزقهم الحكمة وهي السنة والفقه في دينه وحسن الفهم ولكنه يؤتيها من يشاء لا معقب لحكمه ومن آتاه الله الحكمة فقد تحصل على الخير الكثير والفضل العميم ولا يعي ذلك ويعقله إلا أصحاب العقول السليمة والأفهام القويمة.

ثم أخبر سبحانه عباده بأنهم ما أنفقوا من نفقة مجردة دون إلزام منهم لأنفسهم أو على سبيل النذر وهو إلزام أنفسهم بذلك ابتغاء وجهه سبحانه فإن الله به عليم ومن ظلم نفسه بإفساد نواياه أو بمخالفة شرع الله فليس له من دون الله أنصار.

ثم بين جل وعلا أن إبداء الصدقات وإظهارها أمر حسن وممدوح إذا تجرد من الرياء

وحال الإخفاء فيها عند إيتائها الفقراء أفضل مراعاة لحالهم وسترا عليهم وهو كفارة لهم لما ارتكبوا من سيئات والله يعلم جميع أعمالهم وحقيقة نواياهم خبير بهم.

﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ﴾

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾

يبين الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن هداية الضالين والزائغين بمعنى توفيقهم للحق ليست بيده تطييبا لخاطره وتعليما للأمة ولكن تلك الهداية إنما هي لله وحده يوفق إليها من يشاء وأما النفقة من صدقة وهدية وفعل الخير فإنه يعود على منفقه وينفع به نفسه في الدنيا والآخرة بغض النظر عن المنفق عليه وحقيقته سواء أكان كافرا أم فاجرا

أم غنيا طالما أن النفقة كان المقصود بها التقرب إلى الله وابتغاء مرضاته وسوف يجازي الله هذا المنفق كل ما أنفقه في وجوه الخير جزاء وافيا لا ظلم فيه ولا انتقاص .

ثم ذكر سبحانه من وجوه الإنفاق أولاها وهو ما كان من نفقة على الفقراء من المهاجرين ومن شابههم الذين حبسوا أنفسهم على طاعة الله تعالى والاستعداد للجهاد وليس لهم القدرة على السفر وطلب المعاش وإذا رآهم من يجهل حالهم وحقيقة أمرهم يظنهم من الأغنياء الذي لا يحتاجون مساعدة أحد لتعففهم وترفعهم عن مد أيديهم للناس وطلب العون منهم ويلحون عليهم في الطلب كما يفعل غيرهم وإنما يعرفون بالتوسم والفطنة من علاماتهم التي تدل على حالهم دون سؤال منهم.

ثم بين سبحانه أنه ما من خير ينفقه المسلم إلا وهو سبحانه عليم به مجاز عليه وأن الذين ينفقون أموالهم وينفعون بها إخوانهم في مختلف أحوالهم من ليلهم ونهارهم وأمام الخلق وبينهم وبين ربهم فإن أجرهم محفوظ لهم عند ربهم لا ينقص منه شيء ولا يلحقهم الخوف مما يقدمون عليه يوم القيامة من بركات هذه النفقات ولا يحصل لهم حزن على ما تركوه في الدنيا من مال وولد.

﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ

﴿٢٧٦﴾

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

﴿٢٧٧﴾

يصف سبحانه وتعالى حال آكلي الربا وهو إما ربا النسيئة أو ربا الفضل أو أنواع من البيوع المحرمة المشابهة أنهم يعاقبون يوم القيامة بأنهم لا يقومون يوم القيامة إلا كما يقوم المجنون الذي مسه الجن وتخبطه بتلبسه به فأصبح مختبلا يصرع ويخنق كلما قام سقط مصروعا وذلك بسبب اعتراضهم على شرع الله سبحانه وقولهم إن البيع والربا سواء ولا اختلاف بينهما . فأخبر الله سبحانه أنه أحل البيع وحرم الربا فمن اتبع شرعه سبحانه وأخذ بما جاءه من ربه وترك الربا فقد تجاوز الله عنه فيما سبق ومضى والله سبحانه عالم به مطلع عليه يعرف نيته وحقيقته ومن أصر على الربا فعاد للمعاملة به بعد ما حرمه الله فجزاؤه النار يمكث خالدا فيها .

ثم بين تعالى أنه يعامل المرابي بنقيض قصده فيذهب البركة ويضيع مال الربا بخلاف الصدقة فإنه سبحانه يربيها ويكثرها حتى تصبح أضعافا مضاعفة والله سبحانه لا يحب الكفار الذي لا يعرف قدر ربه وقدر أوامره الأثيم الذي يأكل أموال الناس ويظلمهم.

أما الذين آمنوا وصدقوا بما جاءهم من ربهم وعملوا به وأدوا الصلاة المكتوبة كما أمر الله وأدوا زكاة أموالهم لمستحقيها حسب شرع الله فهؤلاء لهم الأجر الكامل والجزاء الأوفر عند ربهم ولا يخافون مما يقدمون عليه يوم القيامة ولا يحزنون على ما تركوا وراءهم في الدنيا من مال وأهل.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن

تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾

يأمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بأن يتركوا ما لم يزل قائما من معاملاتهم الربوية إن كانوا حقا مؤمنين به وبما أنزل إليهم من تشريعات ثم تهددهم إن لم يفعلوا ذلك فإنه سبحانه سيكون حربا عليهم في الدنيا والآخرة بإقامة شرعه عليهم في الدنيا وبالعذاب الأليم في الآخرة وأما إن تابوا فلهم أن يطالبوا بأصل أموالهم ولا يأخذون شيئا زائدا عليها فلا يقع عليهم ظلم من أحد ولا يظلمون هم أحدا.

ثم أمرهم سبحانه أن يمهلوا من كان معسرا لا يستطيع السداد إلى الوقت الذي يتيسر له فيه ذلك وحثهم على أن يتصدقوا عليه فهو أولى لهم وأفضل لو كانوا يعلمون عظم الأجر المترتب عليه والخير المدخر لهم في ذلك. وختم ذلك سبحانه بأن يجعلوا بينهم وبين اليوم الذي يرجعون فيه إلى ربهم وهو يوم القيامة ما يقيهم عذابه حيث تأخذ كل نفس ما تستحقه وافيا غير منقوص حسب ما عملت دون أن تظلم شيئا.

ثم بين سبحانه أحكام الدين فأمر المؤمنين بكتابة الدين المقيد بوقت محدد وأن يكون الكاتب الذي يكتب لهم كاتبا بالعدل والحق فيكتب كتابة صحيحة كما علمه الله تعالى ويقوم بإملاء المكتوب الذي قد أخذ الدين ويتق الله تعالى فيذكر الصدق ولا ينقص شيئا

مما عليه فإن كان صغيرا أو ضعيف العقل أو ليست لديه القدرة على الإملاء لعي أو غيره فيقوم وليه بذلك بالحق والقسط. وأمر جل وعلا بأن يشهد على ذلك رجلين أو رجل وامرأتين من العدول الذين يرضاهم الطرفان وإنما جعلت المرأتان في مقابل الرجل حتى إذا نسيت إحداهما أو أخطأت تقوم الثانية بتذكيرها وتنبيهها للنقص المعروف في النساء.

ثم أمر سبحانه الشهداء أن يستجيبوا للشهادة إذا دعوا إليها ولا يرفضوها سواء في تحملها أو أدائها وأمر المؤمنين بعدم الضجر من الكتابة مهما كان الدين صغيرا كان أم كبيرا إلى الأجل المتفق عليه فإن ذلك هو الطريق الأعدل والأقوم عند الله وهو ما يدفع الريبة والشك وسوء الظن.

ويستثنى من ذلك حال التجارة الحاضرة فطالما كان بيعا يدا بيد يدار بين الأطراف فلا حرج عليهم ولا إثم إن لم يكتبوها وأما الإشهاد فعليهم أن يشهدوا على البيع كما أنه لا يجوز الإضرار بالكاتب الذي كتب ولا بالشاهد الذي يشهد بأي صورة من صور الإضرار فإن من فعل ذلك فهو في شرعه سبحانه فاسق عاص مخالف لأمره سبحانه.

ثم أمرهم سبحانه باتقاء غضبه وعقابه وبين لهم أنه يعلمهم ما يصلحهم وينفعهم فهو سبحانه العليم بكل شيء المحيط بما فيه الخير لهم.

﴿ ۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨٣ ﴾

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾

يقول تعالى لعباده مستكملا أحكام كتابة الدين أنهم إن كانوا في سفر ولم يتيسر لهم الكاتب فيمكن أن يستعاض عن الكتابة بحبس شيء من متاع المدين لدى الدائن لتوثيق الدين يقبضه الدائن لحين كتابة الدين أو رده، وإن حصل أن أمن الدائن المدين ولم يكاتبه أو يأخذ رهنا منه فعلى المدين أن يؤدي ما أخذ وهذه أمانة في رقبته فليتق غضب الله ربه وعقابه له إن فرط في الأداء. ثم نهى سبحانه عن كتمان الشهادة وبين أن كاتمها فاجر وقلبه فاسد أثيم والله سبحانه يعلم كل ما نعمله فيحاسبنا عليه

ثم ذكر جل وعلا أن الكون كله بسمواته وأرضه ملك له خاضع لجلاله ومهما أظهرنا ما في أنفسنا أو أضمرناه فلم نظهره فإن الله تعالى محيط به وسوف يحاسبنا عليه فيغفر لمن شاء سبحانه برحمته وفضله ويعذب من شاء بعدله وحكمته فهو جل وعلا على كل شيء قدير لا يعجزه شيء ولا معقب لحكمه.

ولما نزلت هذه الآية واشتد على الصحابة المحاسبة على ما في أنفسهم ومع ذلك آمنوا وأذعنوا أخبر سبحانه بأن النبي –صلى الله عليه وسلم– ومن معه من المؤمنين قد آمنوا بذلك وبكل ما أنزل إليهم من ربهم وآمنوا بالله وبملائكته وبكتبه وبرسله ولم يفرقوا بين المرسلين في الإيمان بل آمنوا بالجميع وكان قولهم للمنزل عليهم سمعنا وأطعنا وطلبوا من الله المغفرة فهو الذي إليه مصيرهم ومآلهم فجزاهم الله على هذا التصديق والانقياد بأنه لا يكلف نفسا إلا ما كان في قدرتها ووسعها وحديث النفس مما لا يملكه الإنسان فالمحاسبة على ما اقترف من خير أو شر فله ما كسب من حسنات وعليه ما اكتسب من السيئات.

وبين سبحانه أنهم سألوه وهو ربهم ألا يؤاخذهم إن وقع منهم المخالفة خطأ أو نسيانا فاستجاب لهم، وبين أنهم سألوه ألا يكلفهم من التكاليف الشاقة التي كلف بها من قبلهم تضييقا عليهم وعقابا لهم فاستجاب لهم، وبين أنهم سألوه ألا يكتب عليهم ما لا يطيقونه من الأحكام فاستجاب لهم، ثم بين سبحانه أنهم سألوه أن يعفو عنهم ويغفر لهم ويرحمهم فهو مولاهم ونصيرهم وختموا سؤالهم بأن ينصرهم على من كفر به فاستجاب لهم له الفضل والمنة.

تم بحمد الله